

شمران الياسري (ابو كاطع)



رواية فلويس إمييد

الكتاب : فلوس احميد
المؤلف : شمران الياسري
الناشر : شركة الرواد المزدهرة للطباعة
والنشر والتوزيع المحدودة
الطبعة الاولى منشورات الثقافة الجديدة ١٩٧٢
الطبعة الثانية الرواد ٢٠٠٧
العراق / بغداد / الرواد



نبذة عن حياة المؤلف :

* في بيئة ريفية بمحافظة واسط - قضاء الحي - ولد
شمران يوسف الياسري في نهاية عشرينيات القرن
الماضي

* عائلته تمتهن الزراعة ، لكنها لم تكن تملك الارض
، لأن نحداره من اسرة علوية (من السادة) أعطى
عائلته مركزاً مرموقاً ووجاهة اجتماعية في المحيط

الذي يعيش فيه ومنحه تعاملاً خاصاً من ملاك الارض والفلاحين على حد سواء.

* لم يدخل شمران الياسري المدارس الحكومية وانما درس في الكتاتيب (الملاّ)
وحفظ القرآن على يد والدته ، لكن رصيده التعليمي لم يتوقف عند هذا الحد ، بل دفعه
ولعه ورغبته في التعلم أن يعتمد على نفسه ويواصل القراءة الخارجية.

* اتصل بالمتقنين من أهل المدن القريبة ، وفي مقاييس ذلك الزمان فأن المعلمين هم
رموز الثقافة والعلم.

* كانت له زيارات الى بغداد ، حيث أحتك بأهل الفكر والسياسة ، الأمر الذي حفزه
أكثر لزيادة رصيده المعرفي . وبالفعل فقد اصبحت معلوماته في القراءة والكتابة
لاتقل عن خريجي المدارس الثانوية ، بل تفوقهم ، عندها أشار عليه بعض اصدقائه
المقربين أن يقدم امتحانا خارجيا ، وكان أن اجتازه بنجاح.

— بدأ يتعلم اللغة الانكليزية ويأخذ دروساً خصوصية فيها ، إضافة الى تعلم مبادئ
المحاسبة ومسك الدفاتر (البلانجو) الذي أهله في فترة لاحقه للعمل لدى بعض المحال
التجارية بصفة محاسب .

— كان لديه مشروع للدراسة في الجامعة ، لكن انغماسه في العمل السياسي و
الصحفي والظروف التي تضطره بعض الاحيان للأختفاء ، منعتة من تحقيق هذا
المشروع.

— أصبح شمران الياسري الشاب القادم من الريف ، مثقفاً من الطراز الاول ،

يلتهم الكتب بشغف ، ويقبل على قراءة كل مطبوع يتوفر له سواء في مجالات الادب والثقافة ، اضافة للسياسة.

* انتقل شمران الياسري الى العاصمة بغداد ، وبدأ يكتب في عدة صحف.

* انتسب الى نقابة الصحفيين واتحاد الادباء ، واصبح لديه عمود يومي يكتبه في جريدة طريق الشعب.

* كان الغالب على نتاجاته ، الهموم الفلاحية ومشكلات الريف ، اما برنامجه الاذاعي (احببها بصراحه بيو كاطع) فقد كان خطأً أوفتحاً جديداً في مجال البرامج الشعبية ، بل يمكن وصفه بأنه عمل ريادي في مجال البرامج الجماهيرييه فهو برنامج ناقد وساخر يترقبه الجميع سواء كانوا من ابناء الريف او المدينة.

* عمل شمران الياسري في عدة صحف ومجلات منها : صوت الاحرار ، البلاد ، الحضارة ، الثقافة الجديدة ، الفكر الجديد.

* درس الصحافة في سنوات السبعينيات من خلال دورات صحفية في معهد الصحافة بألمانيا الديمقراطية.

* تعرض شمران الياسري للملاحقة والاعتقال عدة مرات وتنتقل بين سجن بغداد المركزي ، وبعقوبة ، والعمارة نتيجة توقيعه على مذكرة نداء السلم في كردستان.

* غادر العراق عام ١٩٧٦ متخفياً وسافر الى أوروبا ليعمل مندوباً لوكالة الانباء الفلسطينية في (براغ) وتوفى هناك في حادث سير.

* توفى الروائي شمران الياسري في يوم ١٧/٨/١٩٨١ بعيداً عن وطنه وأسرتة ، وقد اوصى قبل وفاته بأن يُدفن في مقبرة الشهداء الفلسطينيين ببירות كي يقترب أكثر من العراق ، ولكي يجنب أسرته وأصدقاءه مما قد يتعرضون اليه من قبل السلطة آنذاك ، باعتبار ه كان مطلوباً لها ، وهدفاً ينوون تصفيته ..

* ومع انغماس (ابو كاطع) في العمل الصحفي ، الا أنه كان يردد باستمرار .. الرواية .. الرواية .. أنني اعشق العمل الروائي .. وبالفعل ، فقد كانت باكورة عمله الروائي هذه الرباعية .. التي تضعها مطبعة الرواد بين ايدي القراء باجزاءها الاربعة.

شركة دار الرواد المزدهرة
للطباعة والنشر المحدودة

فلوس احميد !!

شمران الياسري

رواية
فلوس احمد !!

الجزء الرابع من الرباعية

الطبعة الاولى ١٩٧٢

الطبعة الثانية ٢٠٠٧

تقديم

شمران الياصري.. مخاضة الفكر من الريف.

إذا كانت هذه الرواية قد بدأت من مضيف الشيخ (سعدون بن مهلهل) في ليلة من ليالي كانون الباردة، وبدأت في الزمان الذي أصبحت فيه ثورة العشرين عام ١٩٢٠ ذكرى قريبة، يتغنى العراقيون ببطولات ثوارها ، ويتحسرون على خسارتهم للمعركة أمام القوة الكبيرة للأنكليز، فأنها تنتهي قبل ان تسقط ثورة الرابع عشر من تموز المجيدة ويتم اجهاضها عام ١٩٦٣ صريعة المؤامرة والفاشية، وفوضى الإدارة التي طبعت المراحل الأخيرة من عهدها ..

ولقد إختار الكاتب ان تنتهي الأحداث (المنشورة) من الرواية قبل يوم الثامن من شباط الاسود عام ١٩٦٣، لان الرواية نشرت في العراق، وفي ظل النظام المسؤول عن ذلك الحدث الاسود.. ولكنه (المؤلف) أكمل في روايته الثانية (قضية حمزه الخلف)، التي نشرت عام ١٩٨٣ بعد رحيله بعامين، احداث الانقلاب وما تلاها.. الامر الذي يجعل الرواية الاخيرة جزءا اساسيا من الرباعية وخاتمتها التي جسدت بداعة المؤلف عندما يتحرر من قيود الرقابة ويقول الاشياء بمعانيها ومدلولاتها.

فقد كتب الرواية وهو في المنفى ونشرت بعد وفاته في بيروت، ووصلتنا

بعد ان عاد المنفيون عام ٢٠٠٣

لقد أرخ هذا العمل المجيد لمرحلة حرجة من مراحل الدولة العراقية الحديثة

لاكثر من أربعة عقود، تتطور فيها سلطة الاقطاع بدعم ومباركة الانكليز والسلطة التابعة لهم، وتلقي بظلالها على ريف الوسط والجنوب -محور الرواية ومناخها-..

فالكاتب يؤرخ لمرحلة نشوء الاقطاع، وعلاقة ذلك بالانتكاسة التي تعرضت لها عشائر الفرات الاوسط (هذي دية ثوار الفرات يدفعونها لشيوخ العشائر بدجله).. فلقد عاد (ابن طرفه) يحمل ألف روبية هدية من الحاكم الانكليزي.. وما ان سمع الشيخ (سعدون بن مهلهل) بهذا الخبر، حتى بدت قضية الوصول الى الحاكم الانكليزي هاجسه الأعظم، والبداية لنشوء السلطة التي خلقتها الألف روبية وتحالفاته مع أعداء الأمس.. ثم تعرض الرواية لوقائع سقوط الاقطاع على يد ثورة تموز المجيدة ونشوء علاقات اجتماعية واقتصادية جديدة .. تتجلى خلالها أخلاقيات وقيم المجتمع، وثبات بعضها وإنزواء الأخرى بسبب هذا الوضع الجديد .

لقد قدمت هذه الرواية المرحوم (شمران الياسري- ابوكاطع) ادبيا عظيما عرفه العراقيون عبر قلمه الرائع وبرنامج الاذاعي الهائل الذي شغل الناس وحاز على اعجابهم ومتابعتهم.. وعندما بدأت جهود نشر الرواية، وهي جهود استمرت لأشهر لإقناع وزارة الثقافة والاعلام(سابقاً) لتعصيد نشر الرواية، ثم اعتذارها لأسباب معروفة، تحول الهدف الى أن يتولى القراء تمويل النشر من خلال شراء الرواية مقدما.. وهي تجربة فريدة في زمن كانت الدولة تطبع أوطاً الكتب قيمة ولعشرات الجهلة من الكتاب وادعياء الثقافة.. فمثل هذا بحق تحديا فطريا من الجمهور المثقف لأعداء الثقافة والفكر الراقي.

لقد كتب المرحوم ابو كاطع هذه الرواية على ضوء الفانوس في الفترة التي تخفى فيها عن السلطة غداة انقلاب شباط ١٩٦٣

كان يصل الليل بالنهار وهو يكتب ويصحح ويعيد الكتابة.. وكان يقرأ مسوداتها لأصدقائه الذين يأتون لزيارته تحت جنح الليل، متخفين من عيون الشرطة وجواسيس السلطة.. فيتحاورون ويناقشون. وكان بعضهم شخوصا بالرواية وابطالاً لاحداث بعينها..

ان (الزناد) هو الاداة التي استطاع بها (ابن مهلهل) التغلب على الشخصية الاسطورية (خلف) وأستحوذ على (ديمته) مقابل هذا الزناد.. ولكن ذات (الزناد)، يستطيع ان يتسبب بحريق هائل ويُغَيِّر مجرى الاحداث، ويوقف ما لم يستطع (خلف) التغلب عليه، وهو البطل الهائل، والطيب حد السذاجة..

لقد عاش (ابو كاطع) في الريف، تعلم منه ما لم يتعلمه في المدينة وفي المدارس والعمل السياسي..

إن ما تعلمه في الريف هو الذي كَوَّن شخصيته اللمّاحة التي إتقّطت واختزنت ألوف المشاهد والجزئيات التي يعجز المشاهد من خارج تلك البيّة ان يلتقطها. ولسوف يُعطي التأريخ لهذا الرجل البارع شهادة على انه تفرد حد الإبداع في عرض صورة للريف واخلاقيات أهله، ونمط تفاعلهم مع الحياة وتدايعياتها بطريقة لم تتح لموهبة أخرى، وأجزم انها لن تتح في الزمن المنظور.

فالذي يعيش في أجواء هذه الملحمة الفاتنة التي تحكي قصة الشعب العراقي الساكن في الريف، لن يتمكن من مغادرة هذا الجو بسهولة..

وعندي أدلة على اصدقاء قرؤوا الرواية فحفظوا مقاطع طويلة منها، ومشاهدات وحوارات في قراءة أولى لها.. وعندما حاولت الاستيضاح عن هذه المقدرة في الحفظ، قالوا بثقة (ان هذه الحوارات محظ حياتنا ونمط سلوكنا، ومن العجيب انها وضعت على الورق بهذه الامانة!!)..

ولم يترك المؤلف (شمران الياسري) بعض التفاصيل التي لا يمكن تصور وجودها في جو درامي مشتعل بالاحداث الكبيرة.. فقد غاص في تفاصيل الحياة العادية وفي الغزل والجنس المتمرد على حدود الذهن الريفى.. ووصف الكرم. يقابله البخل المفزع.. ولقد وصف ذكاء أهل الريف وسرعة بديهيتهم للحدود التي تقنع ابن المدينة الذي لم يعيش في بيئتهم.

لقد نشرت هذه الرواية، عام ١٩٧٢ ضمن منشورات مجلة "الثقافة الجديدة"، المجلة التي قادت الفكر العلمي والثقافة التقدمية، ومازالت تفعل ذلك بشرف وامانة.. وطبعتها مطبعة الشعب..

وخلال عام ٢٠٠٣، بعد سقوط نظام الحكم، كان المثقفون، وعامة الناس، يبحثون في شارع المتنبي عن الرباعية او عن بعض أجزائها.. وكان اصحاب المكتبات يعرفونها تماما، ويرشدون الى النسخ المصورة منها والاماكن التي توجد فيها..

وخلال عام ٢٠٠٦، إتجهت مطبعة (الرواد) الى فكرة إعادة طبع الرواية، وهو حلم راود الكثير من محبي أدب (ابو كاطع)، وبعد أن بادرت وزارة الثقافة مشكورة الى اعادة طبع رواية (قضية حمزه الخلف) التي نشرت عام ١٩٨٣ بعد عقدين من الزمن..

ان مطبعة (الرواد) تقدم خدمة مجيدة للمكتبة العراقية عندما تعيد طبع

هذه الرواية، معرضة عن تفاصيل الكلفة واحتمالات الخسارة والريح، معتمدة بالدرجة الأساس على حقيقة ان هذا العمل الكبير يجب ان يكون في متناول القارئ، للتذكير بان الشعب العراقي. الذي خاض في الريف معركة التحرر من التخلف جنبا الى جنب مع المدينة. بعمالها ومنتقفيها وطلابها. يستحق توثيق نضاله المجيد.. وللتأكيد على إن المكتبة العراقية لم تغلق. وإن القارئ العراقي موجود. وعليك أن تسعى إليه وتقف ببابه. تقدم اليه المادة الجيدة في هذا الزمن العصيب.

ان رواية (شمران الياسري) (الرباعية) بأجزائها الاربعة (الزناد، بلابوش دنيا، غنم الشيوخ وفلوس أُحميد) تستحق القراءة، وتستحق التفكير الجدي بانتاجها كعمل سينمائي أو تلفزيوني أو اذاعي، لأنها ملحمة وطنية تقطعت انفسنا ونحن نتابع بأهتمام شديد شخوصها وأبطالها وهم يتحركون على مساحة زمنية وجغرافية وأخلاقية واسعة..

وتستحق (مطبعة الرواد) كل التقدير لهذه المبادرة المخلصة.. كما تستحق إذاعة (راديو الناس) التقدير والعرفان بعد ان قررت إعادة عرض هذه الرواية بطريقة مبتكرة فيما يسمى (الكتاب المسموع).. واستطاع الفنان المبدع الاستاذ (جاسم يوسف) ان يضع المستمعين في أجواء قريبة من مقاصد المؤلف للشخصيات والاحداث والبيئة.. لانه ابن البيئة وأحد الشهود على جانب مهم من أحداث الرواية..

لقد حظي المؤلف بقدر معقول من الاهتمام غداة سقوط النظام عام ٢٠٠٣.. فاحتفت به الصحافة بطرق مختلفة.. وأعدت وزارة الثقافة نشر روايته (قضية حمزة الخلف).. كما منحته درع التنبي.

سببى (شمران الياسرى - ابو كاطع)، متفرداً في حصاد القيمة الكبرى للكتابة من الريف عبر أفق فنى وأدبى لم يتح لمثله.. وسببى الريف العراقى قضية كبرى ومصنعاً هائلاً لإنتاج الثقافة ومنبت الفكر الخلاق في الشعر والأدب والخطابة والسياسة.. ولقد كانت (صراحة) أبو كاطع مدرسة كبرى في إنتاج العمود الصحفى اليومى، ثم في إنتاج الرواية الرائعة.

إحسان شمران الياسرى

شباط/ ٢٠٠٧

الفصل الأول

تأمل (صالح ابو البينة) كسرة خزفية ملونة. قلبها بين أصابعه، متفحصاً ألوانها الزاهية: الله وحده يعلم مقدار السنين التي مرت عليها وهي ملقاة على هذه الرابية. عرضة للشمس والرياح والمطر.. ومع ذلك ما تزال ألوانها..

امسك ذيل "زبونه" المقلم، ودقق فيه النظر: تداخلت ألوانه بعضها ببعض واستحالت الى لون التراب.. ولما يمض على شرائه سوى سنتين..

عاد الى قطعة الخزف يتأملها بإعجاب اكثر: الأنهم كانوا يتبطرون في عيشهم -كما يقول السيد الكربلائي- قلب الله عالي بيوتهم سافلها؟

ثنى ركبتيه، وطوى ساقيه الطويلتين تحته، ثم جعل كفيه تحت ذقنه المغيرة، وركز مرفقيه على الأرض، ففاصتا قليلاً في تراب الرابية... ومع أنهم ما يزالون يرددون -دعاء بالشر- "الله يجلبكم يشان" لكن دعوة نبينا محمد كانت الحد الفاصل -كما يقول السيد-.. فقد خفف الله العقوبة عن البشر ولم تعد قراهم عرضة لان تصبح تلولا حين يأخذهم بذنوبهم، معنى ذلك ان العقوبة استبدلت بأخف منها.. اما أنا فأعتقد (وآلف أستغفر الله) بأنها كانت عقوبة هينة.. فما أسهل على المرء ان يستريح من متاعب دنياه في غمضة عين.. ويصبح البيت وأهله رابية مثل هذه.. آلف استغفر الله ربي..

حرك رأسه كما تفعل السلحفاة، دون ان يغير وضع جلسته، وقال لنفسه بثقة: هذه الرابية ليست سوى بيت لواحد منكوب مثلي.. توغل في "هور المصندك" يطلب المرعى الجيد لشيائه.. او يكون مطاردا من أمثال عودة الكبر وملا نعمة! فغضب الله عليه.. (آلف استغفر الله يا ربي) أنها

سعادة وليست عقوبة.. تحول إلى رابية واستراح أما أنا فما زلت أتجرع عقوبتي على امتداد اللحظات والساعات.

أنشب أسنانه في شفته السفلى وحاور نفسه نادماً: استسلمت لضغطهم وأذعنت لمطالبهم التافهة.. سكر وشاي وغالون نפט.. كان علي ان احتفظ بجبروتي وأبقى مرهوب الجانب صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في البيت.. لأن خرجت من هذه الشدة سالماً لألقنهم درساً لن يتجراًو بعده على ممارسة الضغط.. لم أعد ذاك الصالح.. لا بد أنني ضعفت دون علم مني! قلتها ببساطة اذهب.. واكتفيت ببضع كلمات تحذير..

مد عنقه الى أمام باتجاه الطريق، ثم لوى رقبته ليعين الوقت من موقع الشمس في السماء: أين أنت يا جنيدى؟ أعرفك حذرا وجسورا ولكن القدر يغلب الثعلب!.

هكذا يا صالح يا أثول - يا ابن الغبرا- تطامنت إلى وهم كاذب وخدعت بأقوالهم: ان الدنيا بخير.. فسمحت له بالذهاب إلى المدينة.. ما يدريني ان كان الآن في قبضة الشرطة.. ومن يقطع بأنه لم يعترف تحت وطأة التعذيب.. ولعله الآن يتقدم الشرطة على الطريق -كدليل يوصلهم إلى بيتي.. وقبل مغرب الشمس يتم الاستيلاء على الغنم دفعة واحدة- على رأي المثل المعروف: "التجمعه النملة بسنة، يشيله البعير بساعة!".

عدل مجلسه، ثم أخرج كيس التبغ.. تحسس ما فيه.. وقال لنفسه كمن يعترف بخطيئته: لولا حاجتي للتبغ لضاعت محاولاتهم عبثاً.. لقد ضعفت إرادتي حين قالت: "هاي كبصة التتن آخر ما عدنا"..

سئم مراقبة الطريق. ثقل عليه الانتظار، المشوب بالخوف.. سحب آخر.

نفس من سيجارته بشدة، حتى تجمعت في نهاية المشرب الخشبي قطرة حادة المرارة، نفذت الى لسانه، فبصقها على الأرض، ثم نفخ في المشرب بقوة.. وحين سقط العقب الصغير لف المشرب في كيس التبغ.. ونهض بتناقل، ليمد بصره الى مدى ابعده. لم ير أي شبح على الطريق... فاستدار ناحية خيامه. شمل الغنم بنظرة حنون وراقبها بمودة وهي ترعى نباتات الهور اليابسة:

يا لها من هموم متصلة الحلقات.. ليت العقوبة لم تستبدل (ألف استغفر الله يا ربي..) ليتني وأهل بيتي أصبحنا مثل هذه الراية بين عشية وضحاها..

* * *

استبشر صالح بمقدم ولده، فراح يخطر عند مشارف خيامه، مدققاً النظر في كل حركة يأتيها جنيدي وهو على ظهر الفرس، ارتاح لمراه منتصباً متوازناً فوق السرج، شأن كل خيال فخور بفرسه.

راقب خطوات الفرس بدقة، فأيقن أنها غير مجهدة. ولا مستفزة: هذا يعني ان رحلته عادية ولم يتعرض لمطاردة.. وليس دون معنى عبثه بسوط اللجام المثلث. كما يحرك البطر مسبحة. كلما عدت من رحلة دون متاعب - أيام الشباب- فعلت شيئاً مثل هذا عند مشارف القرية!

حاول صالح ابو البينة ان يتظاهر بريادة الجأش، ويبدو أمام أهل بيته متماسكاً، وكأنه عليم بما جرى، ويجري، وليست به حاجة لسماع أجوبة جنيدي، وعلى أساس من ذلك طرح أسئلته بلهجة لا مبالاة: ويضحك الناس حقيقة؟ يسرون ولا يلتفتون خيفة؟ ويتعامل التجار بالنقود جهاراً نهاراً؟

ورأيت قطعان الغنم تسرح بأمان قرب المدينة؟...

يرد جنيدي على أسئلة أبيه.. لكن الأم تشاغله بأسئلتها وهي تتسلم الحاجيات من يده.. تصر على ان تكون الكمية كما طلبها الأب.. والنوعية كما أوصى بها:

السكر والشاي والتبغ والدبس.. وحتى إبرة الخياطة. وتفتح غالون النفط، تشم رائحته، وتقيس بالعين فراغه..

لاحظت عدم احتفاء زوجها بالحاجيات فتركت أسئلتها وأصغت إلى ما يدور بين الأب وابنه...

شرع (صالح ابو البينة) يمشط لحيته بأصابعه، شأنه عندما يحدثهم في أمر خطير.

انصرفوا الى أقواله كلية، موقنين ان الأمر الذي يعرضه غير عادي.

قال (صالح ابو البينة) وكأنه يجيب: وأذن فالدنيا بدأت تستقر بعد هياج. وربما بالغنا - أصلاً- وتطيرنا دون التثبت من أقوال (مهيدي) لا أريد ان أخدعكم واخدع نفسي فأزعم ان الأحوال عادت سيرتها الأولى - ولكن يتعين عليّ الذهاب الى (البترا) لأسمع وارى. رب قائل منكم يقول كيف تذهب دون علم بما جرى وما هو جار؟ أعددت كل شيء في ذهني: اسلك طريقاً ملتوية.. انتظر مغرب الشمس ثم اهبط بيت داود متنكراً.. وعنده أجد الخبر اليقين. فإذا استوثقت من ان ظهوري بين اهل البترا لا يثير المتاعب -ذهبت بنفسى الى القصر.. وكلمت الشيخ "والشيخيات" بشأن الغنم وعلفها.. وصعوبة تأمينه ونقله وارتفاع أسعاره وكلفة النقل بالسيارات وما الى ذلك من مشاكل نعانيتها... اما اذا وجدت الظرف غير

مناسب، بعثت داود يكلمهم بشأنها..

توقف عن الكلام فجأة، ريثما يستعيد صرامته، ثم توجه إلى أهل بيته بالتحذير -على مدى ساعة سبقت مغرب الشمس، وساعتين أعقبنا المغيب:-

حذار من الإهمال والتهاون بالحراسة.. لن اقبل عذراً من احد.. المسؤولية في هذا البيت لا تتجزأ. لن يشفع لقائل قوله حدثت السرقة في نوبة فلان او أفلتت الهفوة من لسان علان. أريد الحراسة ليلاً وكأن البردي والقصب كله أشباح لصوص.. وأريد رعي الغنم نهائياً وكأن الأرض حفرة مغطاة بالقش لا يحتمل سقفها أكثر من نعجة واحدة..

وحذار من الغرباء.. حذار من كل غريب. تخيلوا ان مهمة كل الناس التجسس على غنم الشيوخ.. وأكررها للمرة الألف! أنت حسين وهذا حسن.. وهذه غنم علي الكشاوي.. حتى في حديثكم المهومس. لا يترك احد بندقيته لحظة واحدة.. النساء والرجال سواء في العقاب.. اذا ما حدث ما يستوجب.. كلكم متضامنون في المسؤولية.. لن يطول غيابي أكثر من ليلتين.. ولكن المثل يقول: "اليروح بأمره ما يجي بأمره..".

وعاود التحذير قبل شروق الشمس، حين اجتمعت العائلة لشرب شاي الفطور. ومع كل رشفة من "استكانه" يرمي نصيحة او تهديدا..

اعتلى ظهر فرسه.. خطت بضع خطوات، هي بالقفز أشبه، فلوى رقبتها باللجام، وقد تمسك بكربوس السرج، ثم أوجز توصياته السابقة على النحو التالي:-

-هاه.. ما اوصيكم بعد. ما اقبل عذر من احد.. الاولاد صيروا نشاما..

البنات صيرن سباعيات.. ام امهيدي عينج عليهم..

أسلس لفرسه اللجام، وضاعف يقظته، مخافة ان يزل حافرها في واحد من شقوق الأرض، التي يتسع بعضها لدخول يد الإنسان حتى المرفق. وازدادت مخاوفه حين لاحظ شقوقاً مغطاة بنبات "السجل".

سائل نفسه مستغرباً: لقد اجتزنا هذا المكان في ظلمة الليل مسرعين ولم تصب أي من المواشي بسوء؟ هذا يؤكد لي من جديد عناية الله بمخلوقاته.

بلغ منخفضاً واسعاً، قدر مساحته: ربما اقل من الصالحية بقليل.. لا يكفيه للمبذار تغار شعير. استاء من كثرة الحفر التي أحدثتها الخنازير، في بحثها عن "السعد" وجذور نباتات الهور الأخرى، فترأت له ارض المنخفض مثل وجه عدو مجدور.

ولما اجتازه بدت الأرض مستوية، وشقوقها صغيرة أشبه بتجاعيد وجه حزين. قدر ان حافر الفرس يمر فوق أكبرها بسلام.. ثم لاحظ، فيما بعد، آثار الماشية وكأنها خطوط راحة اليد، فأطمأن الى سلامة الدرب. وقرر ان يستحث فرسه على المشي السريع: شد لجامها ولكزها برفق تحت الخاصرتين، فقفزت مستفزة.. وارتفع "شليلها" مثل ذنب العقرب. حركته في الهواء حركة شبه دائرية فلامس شعره الطويل عبايته التي دفعها الهواء فغدت مثل شرع صغير.. ولوت عنقها ثم رفعته إلى أعلى حتى صار رأسها في مستوى صدره.. وراحت تشتط في مشيتها وتزفر الهواء بعصبية، اعتادها صالح في بداية كل رحلة، خصوصاً اذا كان الهواء بارداً..

تمنى لو كان الطريق خالياً من النباتات اليابسة: إذن لأطلق لها العنان
وبددت شحنة القوة المكبوتة وبعدها تستسلم بين يديه وتستقيم مشيتها.
قاربت بين أذنيها ولوت عنقها جانباً ثم أجفلت، احتفظ صالح بتوازنه فوق
السرج، وقرر مواصلة أخذها باللين حتى تخف حدة جموحها. رفع صوته
كأنه يعيرها.

-وچاد شفتي لچ خط وتصركعتي!!

التفت نحو المكان الذي أجفلت منه، فرأى كيساً ورقياً ممزقاً، تعبت به
الريح فوق شتلة "سجل" عالية. تذكر اصل عقدتها من الورق: كان أول
عهدها بالركوب. ليتني منعت جنيدي من أخذها إلى قرية الشيوخ.. لست
ادري لماذا اخرج الكيس من الخرج.. وحتى الآن لا اعرف كيف سقط
أمامها.. لقد نال جزاء غفلته ورمته على الارض. لو كان "بطان" الخرج قوياً
بحيث يستقر تحت بطنها مدة أطول لحدثت كارثة (والعيان بالله).

راودته رغبة التدخين.. فأخذ يداعب شعر "معرفتها" بيده و"يطنجر" لها
بلسانه، فاستجابت للملاطفاته قليلا. ولكن ليس الى الحد الذي يسمح
بإخراج كيس التبغ ودفتر ورق اللف -وصنع سيكارة- وقدحة زناد: ليتني
أوصيته بشراء علبة سكاير ما أكثر فائدتها مثل هذه الساعة.

شد لجامها برفق، فتهادت في مشيها. أدارها ناحية الشرق، ليتقي
الهواء خشية تطاير التبغ. مدت رأسها الى نبتة "عجرش" فحال "المصراع"
بينها وبين النبتة. قريت رأسها من ركبتها وحاولت نزع المصراع، لكنها لم
تفلق.. ولقد كررت هذه العملية ألوف المرات على مدى عشر سنوات فلم
تنجح مرة واحدة.. ومع ذلك لم تيأس من نزع المصراع ذات يوم.

اجتاز خيام رعاة متناثرة، متشابهة في حجومها وألوانها، كلها مصنوعة من شعر الماعز الأسود، ومر بقطعان غنم، لم ير بينها إلا الأبيض، ولكنها متفاوتة في كثرتها. فقال لنفسه ممتدحاً فطنته: لقد احسنت صنعاً بالابتعاد عن هذا المكان المألوف. لو كنت بينهم لتميزت ببיתי الكبير.. وفضحتني غنم الشيوخ بكثرتها وسمنتها ونوعيتها المميزة بشيء... لا أدريه -على اية حال- ولكنها لا تشبه هذه القطعان..

لمح في سفح منبسط، لا تغمره المياه إلا حين يشتد ريح الجنوب، أواسط وأواخر الربيع، سرباً كبيراً من الكراكي يصطف بانتظام بديع، فقدر المسافة بينه وبين مكان الكراكي حين تمنى: لو كانت معي بندقية جندي، البرنو، وكان لي ذلك المزاج الصافي لأصبت أكثر من واحد في طلقة واحدة...

نظر الى فرسه وقال كمن يعترف بالجميل: تقف وكأنها هي الصياد حالما تحس ان خيالها يصوب بندقيته. ولكن سرعان ما تذكر عقدها من الورق.. فقال كالمعاتب: لو تخلصت من عادتها السيئة.. عادة الخوف من منظر الورق على الأرض والخوف من وشوشته بين يدي الراكب.

ولما اقترب من سرب الكراكي لاحظ توثبها للطيران. صاح كركي، كأنه يصدر أمراً بالحركة، فحفقت الأجنحة بهدوء.. وانتظم الرف في طيرانه.. وتناغمت اصوات الكراكي: ان ما يحتاجه بيتي واهل بيتي يقظة الكراكي ونظام حياتها. لا اشك في أن الكراكي وهي تمرح على الأرض تعين حارساً ليلياً من بينها ولكن الذي أعجب به -ولست متأكداً من صحته- قولهم أن الكركي الحارس يمسك حجراً صغيراً في "كف" رجله ويقف على

رجل واحدة. فإذا خانتة اليقظة وغلبه النعاس سقط الحجر واستيقظت كل الكراكي.. وما يدريني ان كان ثمة نوع من العقوبة تنتظر الكركي المقصر؟!

* * *

لاح له واحد من "جماليات" حمزة، فقارن بين الوقت اللازم لوصوله، والوقت الذي تبلغ به الشمس مغربها. أرخى لجام الفرس وسحب "رشمته" لتقصر الخطو..

ولما غربت الشمس حثها على السير، فبدا له منظر الخرائب المحيطة بحوش حمزة، في عتمة المساء، نذير شؤوم أيقظ مخاوفه. فكر لحظتئذ: لا بيت داود ولا بيت حمود.. وقع المحذور يا "مگروء"! وسقطت في شباك الخبيث حمزة!

كيف أواجه نظراته المتسلطة.. واتقي لسانه الحاد؟!

ازعم السكنى في مكان موهوم وأتھياً للفرار بعد منتصف الليل.

اقول لهم: لا تنزعوا سرج الفرس.. أنها مبتلة بالعرق وأخشى عليها من "التييس" - هذا ان وجدته مثل أخيه معادياً للشيوخ.. ومتحمسا كالأخرين لنهب الغنم..

حماقة ما كان عليّ ان ارتكبتها.. أسعى بظلفي الى حتفي "عويته الكتلته

ايده!"

ميّزه حمزة، بذكاء مدهش، قبل ان يرفع لثامه، وهتف مرحباً:

-اهلاً وسهلاً ببو مهيدى..

(أهذا جزء من تطمين الصيد المغفل.. الذي سعى بقدميه الى الانشوطه؟!

ما أكثر شكوكي بهذه الاهلاً وسهلاً - المشبوهة!)

-ويكم أكثر.

-يا مية مرحبا..

(ميه مرحباً؟! العبرة بالخواتيم.. لن اخذع ولن "اطوف على ماي البلاه!").

رفع اللثام عن لحية تشعثت، وانبسبت خصلاتها متخالفة، وكأنها شتلات قمح عالية، بلغت من النمو غايته، فعبت بها خنزير بري، أكل السنابل وكسر السيقان، وتمدد في اللوح، متقلباً ذات اليمين وذات الشمال!

استغرقتها حديث نو شجون، عن الغنم ومرعاها، وعن ارتفاع أسعار الشعير، وصعوبة الحصول عليه، فتطامن (صالح) بعض الشيء، وزايله القلق.

المرعى هنا لا يحتمل قطعاً كبيراً مثل غنم الشيوخ. أحسنت صنعاً برحيلك إلى الهور -هكذا خاطبه حمزة، بود وصراحة.

المرعى هناك خصب. ولكن المشكلة في نقل العلف بالسيارات.. فالأجور تكلف كثيراً وتجعل الشعير بنفس سعر الحنطة. كذلك اجابه صالح.

ألف بينهم حديث الغنم -فتناجيا بحرارة، بخرت شكوك صالح بمضيفه. وازداد به ثقة، حين كشف حمزة عن خلافه مع ملا نعمة وجماعته، بسبب اقتطاعهم الجزء الأكبر من ديمة خلف.

اما لماذا رحل داود الى قرية مويلحة؟ فأن جواب حمزة عليه: اراد ان يختبئ في "عب" عبيد المنتاز، ذي المكاينة المرموقة في الجمعية الفلاحية. وإما حمود بن شنين، فقد استغل قرابته للزعيم الجديد عودة الكبر ورحل

الى قرية مويلحة ليختار أجود الأراضي...”ومعلوماتك يا ابو مهيدي..
العدا حبايب.. أنت موش غشيم.. تدري وتعرف!!”.

ضحك صالح ابو البينة، حتى دمعت عيناه، كان عهده بالضحك بعيدا
جدا -ربما نسيه، لو لم يكن غريزة.. لاحظ ذلك بنفسه وقال:-
-اللّه ينعل الشيطان.. واللّه حسبالي نسيت الضحج! ثم سأل صاحبه
بخبث:

-تسولف علحبايب.. وانتة ابو الحبايب!
قصد (فرهوداً) بإشارته، فأدركها حمزة دون عناء. وأجاب بلهجة تقطر
مرارة:
-اخوي؟! طلع لا كلب ولا چلاوي.. ما صابني منه غير الضرر. ما
نفعني أبداً أبداً.

* * *

في حين يكتشف صالح مقدرته على الضحك، ويفرح لأنه لم ينس هذه
العملية الممتعة.. ويقهقه لأتفه دعابة بقولها حمزة، وكأنما يريد تمرين رثتيه
او نفض غبار الكآبة عنهما، كان بيته مسرحاً لأشباح مرعبة، ركبت ولديه،
فحركتهما على نحو عابث، وقد أسلم كل منهما قياد نفسه لغريزة جامحة
جائعة، فراحا يتخبطان وسط ظلمات الليل والشكوك.

فكر جنيدي وقد تأكد من يقظة أخيه: انه يراقبني ولا شك.. ومن يدري
-لعله ينوي التسلل الى مخبأ النقود في غفلة مني.. أنت تحتاج الى الذكاء
اكثر من أي شيء آخر. ولئن وجهتك الذئبة -بمكرها وخبثها.. سوف تجد
المصيصة في طريقك.

وقف بجوار خيمة "الظليان" ليواجه باب خيمة مهيدي. صفر مرتين.. وسعل مرارا.. ثم أشعل سيكارة.. تأكد له ان مهيدي يترصده. لف عبائه على عمود. خلع يشماغه وطوق به رأس العمود. ثبت العمود جيداً.. جلس على الارض ليوهم أخاه بأنه على وقفته، في ذات المكان. زحف الى مخبأ النقود، في كوسر الربعة، من الخارج: ما الذي افعله لو عثرت عليها مجتمعة؟ لا شيء.. أعيدها كما كانت. ولم اذن هذا العناء كله؟ اطمئن عليها وحسب.

لو عثرت على عشر منها وفي كل واحدة مائتان= الفان. مهرها لا يتجاوز ثلاثمائة.. الف وسبعمائة.. تكفي لشراء قطع لا بأس به. او فتح دكان في المدينة مثل دكان عبد علي الشرامة.. هراء.. لن اعبث بها أبدا. مجرد إلقاء نظرة. مرة وضع اربعمائة دينار في بطل واحد. "عشرة". لا لزوم لكل هذا.

افرغ تراب الحفرة كله، فلم يعثر على شيء. أعاد التراب بسرعة. اجتهد في تسوية المكان رجع الى موضعه حبوا: لاحظت شيئاً من القلق يرتسم على وجهه.. وزوجته مثل ذئب جائع.. ما الذي يتعين علي فعله؟ الوقت لا يحتمل التهاون.

حبا بسرعة حول البيت الكبير.. بلغ خيمة مهيدي. ألصق أذنه بنسيجها.. سمع زوجته تعنفه:

- أنت غشيم..
- لا اتخافين..
- نتغلب..

- انظر المجان

- خاف هسه...

- بساع..

ماذا؟ عن أي مكان تحدث؟ تحرس المكان الذي أخفيت فيه النقود؟
سمع همهمة.. والتصاق جسدين، فشعر بالاشمئزاز وتأنيب الضمير
لتلصصه..

رجع الى مكانه مشوش الذهن. استبد به قلق مخيف. وجد نفسه امام
تجربة قاسية وامتحان عسير.. لبس كوفيته وعباءته: هل صرت ضحية
لمؤامرة نسجت خيوطها الذئبة؟ لطحنتني بدم القتل وانا منه براء؟! لن
تراوده الشكوك بمهيدي ابدأ.. لو نزل جيش من الملائكة وكل يحمل قرانه
لعجزوا عن تبرئتي.. اعرف مزاج أبي ومبلغ شكوكه.

أما انت يا مهيدي وقد سبقتي - فلن تقلت مني قط. اكون ذلك او ثالث
الملكين احصي انفاسك.

لف سيكارة.. سمع مهيدي يتنحج.. وشاهده يراقب النجوم، ليستدل بها
على الوقت... ومعرفة نوبته في الحراسة.. ثم راه يتقدم ناحيته ويقول:
-روح نام، أنه شبعت نوم.

-خوش. بس دير بالك زين.. أنه كلش نعست..

-ما عليك روح نام.

بعد دقائق معدودات، شخر جنيدي ليوهم أخاه. زحف مهيدي الى كوسر
الربعة.. اخذ ينبش التراب بخفة الجرذ. انسل جنيدي من فراشه بهدوء.
وضع عينه على ثقب في "القلي": مرة اخرى تبحث في المكان؟ هل تعيد

الزجاجات فارغة؟ لا. انه يبحث وليست معه زجاجة واحدة.. ربما أشارت عليه الذئبة بشيء يحبك المؤامرة...

تحسس جيوبه: كيس التبغ. الزناد. المسبحة. هل سرقت طلقة من عتاد بندقيتي او مسدسي؟ او شاجوراً فارغاً؟ ان مثل هذا الشاهد لا يكذب! سوف أحصي حاجياتي وعتادي. هراء! فما أكثر العتاد والشواجير..
رأه يعيد التراب الى حفرتة: مثل قطة تدفن فضلاتها. ترك المكان، وأسرع الى خيمته.. سمع لغطا بين الزوجين لم يتبينه.

ومضى الليل يدب بخطى السلحفاة. أتعبتهما مراقبة بعضهما البعض. لم يتخففا من عناء الترصده الا حين استيقظت الام عند الفجر وتبعتها هدية.. وصرخت بنت مهيدي جائعة تتعجل إشعال التنور. وامتلا الفضاء بنهيق وثغاء الغنم والطنيان.

نهض جنيدي من فراشه مرهقاً. ملأ الإبريق وذهب ليقضي حاجة الخلاء، بعيدا عن البيت. أشار مهيدي الى زوجته بالإصبع، ان تعين المكان الذي جلس فيه أخوه، لتفتشه في وقت مناسب، او لمجرد أظهار فطنته أمامها.

تناول الإبريق من يد أخيه، وقصد الخلاء، بعيدا عن مكانه.. فراح جنيدي يتابعه بنظرات الشك والريبة: ابتعد أكثر من المعتاد: واتخذ من خميلة البردي سترًا.. يده تعبت بالأرض.. بوسعي ان اهتدي الى المكان معصوب العينين، لن اذهب اليوم لرعي الغنم، لا اتركه ينفذ جريمته.
-أنه اليوم ماني طيب.

هكذا أجاب أمه، معترداً عن تناول الفطور، فكان هذا كافياً لجعل الشك

في مرتبة اليقين عند مهدي: والا فما معنى اعتذاره عن تناول الفطور؟
يريد التخلف في البيت، ليحكم خطته ويهرب بالثروة كلها.
أعلنت زوجة مهدي انها ترعى الغنم بدلا منه، فهو يشعر بصداغ
شديد..

ذعرت الام وصاحت:

-يا الله دخيلك! اشبيهم اولادي اليوم؟ اثنينهم ما هم طيايا؟!
لما سمع جنيدي بتمارض أخيه، نهضت ظنونه على قدمين، وغدت حقائق
لا تطالها الاوهام: الآن عرفتك يا مهدي ينطبق عليك القول "وجه خروف
بغلب ذيب" هل صممت على الفرار بثروة ابي؟ وتتبعك الذئبة الى مكان
متفق عليه..؟ لن أيسر لك هذه الفرصة الذهبية "مش بوزك!"

* * *

تسأل صالح ابو البينة، وهو يشرب شاي الفطور، ان كان بمستطاع
حمزة ان يرسم له صورة متكاملة عن الوضع في البترا..؟ فجاءه الجواب
مشوشاً، لا يدعو للطمأنينة: هدأت الأحوال نسبياً.. والشيوخ مستقرون،
بعض الشبي، وان كنت اتحاشى زيارتهم، والتعرف على أحوالهم -لكن
هذا لا يعني اختفاء المتاعب وزوال المخاطر الى الأبد، فلا احد يدري متى
يصاب عودة الكبر، وجماعته بنوبة هياج "الله يستر من تاليها!"

استيقظت مخاوفه، بعد تهوية قصيرة، واعتزم ان يستطلع الأحوال من
مصدر وثيق الصلة بالشيوخ، فخرج على بيت ابن اخيه داود. ولطالما ألح
عليه السؤال التالي: ماذا قال عني الشيخ بعد رحيلي المفاجئ؟ هل قدر
موقفي.. ام استاء من تصرفي؟

رحب داود بعمه، أكثر مما ينبغي، وبدت عليه إمارات سرور حقيقي، لم يطل انتظار صالح لمعرفة أسباب الفرحة. بادره داود قائلاً:

-والله يا عمي سويت عليّ فضل كبير بجيتك..وأضاف موضحاً:

أمروني الشيوخ قبل يومين، اروح للهور، وما قبل الشيخ -الله يحفظه- كل عذر، كالمأثره منك غرمن ترمن.. وچانت نيتي اليوم امشي- هسه اريدك تبيض وجهي، وتقول اجاني داود.

اوجس صالح خيفة من هذا الاستدعاء الفوري، وتساءل بقلق عن أسبابه. فطمأته داود، بأن كل شيء يسير على ما يرام.. ولك عندهم الذكر الحسن، ويقدرّون أسباب رحيلك المفاجئ. وعلى أية حال.. بعد ساعة او ساعتين تعرف كل شيء حين تواجه الشيخ.

استعلم صالح، زيادة في الحذر، ان كان زهابه الى قصر الشيوخ، في وضح النهار مجلبة للمتاعب او القيل والقال؛ فأكد له داود: ان الشيوخ في طريقهم لاستعادة المجد المثلوم، والامور تجري كما يشتهون.. وان الفلاحين في حالة دفاع عن النفس.. والدائرة تضيق حولهم شيئاً فشيئاً؛ لان اجهزة السلطة في اللواء تقف كلية الى جانب الشيوخ.. وبوسعي التأكيد - اعتماداً على معلومات الشيخ- ان الجمهورية محاصرة الآن في وزارة الدفاع وحسب، ويذهب هلال الصلال الى ابعد من ذلك..

قال صالح لابن اخيه، وهما في الطريق الى قرية الشيوخ:

-شفت هذا جيرانك عودة الكبر اشلون يخنزرد علينا من ركبنا؟ چنه عيون ذيب والعياذ بالله!

-هذا عود ايراقبني -الله ايجرم!!- لكن اشحدّه ولا جدّه يگدر عليّ..

ويومه جريب انشا الله.. اعلمه على هاي المراقبة!

لذعته كلمة "مراقبة" تخيل رقيباً يحصى عليه افعاله.. تذكر رواية حمزة لمحتويات المقال الذي كتبه فاضل، تعرض خلاله لصالح أبو البيه على نحو عابث: كيف يجيء بالطلي الصغير ويأخذ مكانه خروفاً من غنم الشيوخ - هكذا رواها حمزة- شياطين.. ادركوا نصف العملية بالحدس والتخمين.. وذكرها على سبيل المزاح.. فلو امسك أحدهم طرف خيط.. لفضح كل شيء.. ملاعين.. ومع أنها دعابة -مجرد دعابة كما يؤكد حمزة- ولكنه أمر سيء للغاية ان يتردد اسمي في البترا.. حسبت أن رحيلي المفاجئ الى الهور وانقطاعي عنهم، قد أسدل ستار النسيان على اسمي وعلى غنم الشيوخ.. في قلب الهور ولم اتخلص من ألسنتهم.. في قلب الهور فعلا.. يا الهي ماذا لو فاضت دجلة واجتاحت الهور موجة فيضان.. ورحلوا على عجل ولا يعلمون أين أخبئ النقود؟.. يا للكارثة.. تسارعت دقات قلبه.

تصعب العرق من جبهته توجه الى داود وسأله:

-كلي هم سمعان بالشط زايد؟

-وين اكو زيادة هسه.. الشط خالي..

صحيح. ان بيننا وبين الفيضان حوالي شهرين. فأني شيطان دفع بفكرة

الفيضان الى ذهني وخلع قلبي!؟

قبل كف الشيخ مرتين ثم وضعها على جبهته، وجلس على الارض في مواجهة الشيخ. أنتظر داود ان يصدر الشيخ أمره لصالح بالجلوس على الكرسي... بيد ان الشيخ ظل ساهماً.. يحدق في عناقيد الثريا البلورية.

تجراً داود وأمر عمه:

-أُعد على هذا السكملي عمي..

اجابه صالح بمسكنة:

-لابويه.. هذا خوش أمجيين.. أهناه اروح لي..

لم يخرج الشيخ عن صمته. طال انتظار صالح للسؤال. او الاستجواب. بدأت الكلمات تتبعثر.. ويرصفها ثانية في ذهنه: "محفوظ اللّهُ يطول عمرك.. صاب الغنم "وبا" اللّهُ يعيذك- معلومك غنم عذيه ارباب ديره وانكرت الهور" والآن تجيء مشكلة العلف.. اشتريت خمس تغارات.. لا .. سبعة..

اجتر العبارات أكثر من مرة. أسعفه فكره، في لحظة معينة، فتمق بعض التراكيب المقنعة. لكنها سرعان ما قفزت من ذهنه كالارانب المذعورة.. وكلما طال انتظاره للاستجواب، تهاوت العبارات فوق بعضها، وضاع جهد التنسيق عبثاً: لعله يفكر بقضية السرقات المزعومة؟ ربما اكتشف بعضها.. أو سعى اليه بعض "المريبحانية" الذين اشترى الغنم.. ومن يدري.. فربما.. التفت الشيخ الى داود يسأله:

-توكف السيارات ورا الكنطرة ويجون مشي؟

-بعيدة عليهم امحفوظ..

-الاحسن نتشاوف اهنك.. چن احنا رايعين للكاوليات

-ايه امحفوظ..

صمت الشيخ. ثم عاود النظر الى سقف الصالون والثريا، بدا وكأنه يعد أقراطها البلورية، لم يعد صالح قادراً على الانتظار، بلع ريقه، وبسط كفيه قبل ان يتكلم:

-محفوظ اشتامر؟! أمودي خادمك داود علي؟

-هاه..؟

-اشتامر.. اجيت حسب وصيتك..

-ايه..

-محفوظ مستعجل.. خدامك ما عليهم اعتماد بالنظاره واحنا نازلين

بمجان مخطور.. لازم أمشي..

-لا.

-چا اشلون امحفوظ.. الله يطول عمرک؟

-انتظر.

-محفوظ ما..

-انتظر.

غمز داود لعمه، وقال:

- إبقَ عمي ما دام الشيخ أمر.

انسَل من الصالون بهدوء، كأنه يتلمس طريقه وسط ظلمة حالكة. التقط

حذاءه من الممر. دفع الباب الخارجي فلم يفتح.. سحبه فلم يفتح.. هزه

بقوة فلم يتحرك: "وين ما أروح مسدودة بوجهي!"

وقف يفكر بطريقة للخلاص.. خشى ان يتهمه الشيخ بالتلصص

واستراق السمع: وكان أمور الكاويليات تعنيه كثيراً!! ولا بد أنه على اعتقاد

راسخ بحصانة أسراره عند داود؟! بوسعي أن أشتري جميع أسرارك

بدينار واحد.

مد رأسه من الباب. سبقتة لحيته. نادى على ابن أخيه:

- داود تعال فك لي الباب ما أعرف له!

غادر القصر يحمل حذاءه بيده، وبهمهم:

- أنه وين وهالطرايع وين؟!!

طلب من أحد الخدام أن يسبقه الى حوش العائلة، بغية السلام على "الشيخية" أم ضاري. اعاد تركيب الكلمات التي تبعثرت بمحضر الشيخ: ربما تسألني بدقتها المعهودة.. "مرصوصة.. ما اتطير طيرها بضباب.. الله يعيني عليها.. ويثولها مثل ذبج المرة..!".

استقبلته بفتور، لم يبلغ حد الجفوة، بدت زاهدة في حديث الغنم. سألها عن الشيخ الكبير، زوجها، فأجابت أنه فضل الإقامة في بيروت ريثما تنجلي الغمة. أدرك صالح من ثنايا حديثها، أنهم ربما يبيعون عددا محدوداً من الغنم.. وألحت الى ان السبب هو تجميد أرصدتهم في البنوك وثمة أمور تحتاج للأفناق.. وكل شيء يهون من أجل الكرامة: كان يحلو لها استعراض الغنم في فصل الربيع، فيؤتى بالغنم الى الحوش.. تخطر بينها بخفة وحيوية.. تحمل "طلية" جميلة على صدرها.. أو تمسح رأس خروف مهيب.. تأمر بتعليق جرس لهذه او تلك.. وصنع "ركاب" للشغرا وتميمه للـجـحـلـا - دنيا - بلابوش دنيا!.

لا زالت اتذكرها.. تستزيد من حكاياتي عن الطليان.. وتستمرئ الحديث عن الخرفان.. والان تلفظ عبارة "البيع" بلا مبالاة.. صدق القائل: "لو جاك السيل حط اوليدك حدرك!" وعلى أية حال، فلا أشك في ان البيع يشمل "الاعواد والحيل" ومع ذلك ففي الحركة بركة.. واحصل من وراء البيع على "لطة" ولم لا؟ "الكيار.. والكيار هم يلحس ايده!".

* * *

تراءى له مضيف الشيوخ مثل مقام سيد سراب أيام الحصاد، مهملأً مهجوراً، لا يؤمه زائر الا مصادفة والغبار في زواياه مثل الكآبة على وجه الشيخية، أم ضاري، وقد تراخت حباله وتهدل نسيجه، وكأن تجاعيد الشيخوخة وهزال المرض هي التي تشوه منظره، كان شامخاً مثل الصقر على مرتقاه.

وجاء الشيخ ضاري، قبيل غروب الشمس، فدخل المضيف كما يدخل الغريب، على استحياء، ونهض صالح ومعه ثلاثة كهول، هم مجموع رواد المضيف. تذكر ايام زمان: مرة في مثل هذا الوقت من العام الماضي.. حشرت نفسي بصعوبة لشدة ازدحام الديوان.. وثمة عشرات ينتظرونه على باب حديقة القصر.

لما خرج الشيخ ضاري من القصر.. استقبله عشرات من الجالسين في المضيف وانضموا الى الواقفين الاوائل.. فتشكلت حلقة واسعة خارج المضيف.. وتدافعوا حوله كما تدافع الغنم ساعة العلف- بلابوش دنيا! وبعد مغرب الشمس بقليل، ذهب الشيخ الى قصره، وانسل الكهول الى بيوتهم، الواحد تلو الآخر.. وتركه الكهوجي وحيداً، فبدأ المضيف موحشاً مظلماً.. لا يؤثر في ظلمته شعاع الفانوس الباهت:.. وكان في كل عمود مصباح كهربائي تتحاشاه العين لحدة ضوئه.

"يادارهم چنتي زهية.. وچانت فوانيسچ مضيه..! دخيلك يا ربي من العاقبة الموزينة!"

وضع "العبد" بين يديه طبقا فيه ثلاثة اقراص خبز، وصحن مرق. وكان على كتفه "يزار" رماه بجانب صالح وقال:

-لو خلصت أشاك هط الطبك بالكوسر..وظف الفانوس ونام.. أنه ما
اجي بأد..

خاطبه صالح في سره:

-”برد حيلك يا أدبس.. دگيت الكهوه بدارهم.. اليتصباح بوجهك ما
يشوف خير..!“

تذكر صالح فرسه.. فنأدى العبد متوسلا:

-يا عمي فدوه لهاالوجه المبروك، هلبت اتجيب عليجة للفرس!؟

رد العبد وهو يغادر المضيف:

-سدو باب الهوش ماكو شئير بأد!

(برد حيلك يا اطس يا أملس.. هيه هم انسدت على عينك.. مصباح

الارنب ولا مصباحك!)

شغله أمر الفرس -فكر بالذهاب الى بيت احد معارفه في القرية

ليستجدي لها شعيراً. ثم عدل عن رأيه:

لست بحاجة للقليل والقال.

اكتفى برغيفين لنفسه، وأطعمها الثالث:

لعل هذا هو السبب الذي حمل داود على إعادة فرسه لأهله مفضلاً

الرجوع الى قرية الشيوخ والعودة لاهله راجلاً- في صبيحة غد.

أطفأ الفانوس وتمدد فوق سجادة عتيقة، بعد ان لف جسمه بالإزار.

وجد نفسه محاطاً بجيش لايعد ولا يحصى.. صوبوا بنادقهم نحوه.. تقدم

مأمور المركز وصاح:

هذا صالح بن احميد.. وصاح آخر: وهذا مهيدي بن صالح، ودفعوا

مهيدي الى جانبه. قال مأمور مركز آخر: هاتوا حبل كنبار نشنق به مهيدي ومن بعده "صالح"! قال مأمور المركز الاول: شتگول شيخ ضاري؟ أشار الشيخ بإصبعه الى "خلف اليميلي" -بياع شرابي الغنم- ثم سأله:

- شتگول بخلف اليميلي.. صداك يو جذاب؟

- يامحفوظ.. خوش ولد.. صداك اليميلي.. الحجي للبخت..

- اشكتر بعنوا عليه من غنم الشيوخ؟

- يامحفوظ لا. يا محفوظ ايه. محفوظ لا.

صاح مأمور مركز:

-شيخ ضاري لا تتعب روحك.. هسه اجيب الغنم تشهد..

أشار مأمور المركز اشارة موجهة الى السماء.. فانفرج طوق الجنود وجاءت الغنم تتقدمها الشگرا - ام جرس- رفعت يدها، فكان لها -بقدره الباري- كف انسان، جمعت السبابة والابهام وحركت يدها قرب لحية صالح وقالت بصوت جهوري واضح "بن".

ذعر صالح. استيقظ مرعوباً. استعاذ بالله من هذا الحلم المفزع. فطن الى عبث الرياح الشرقية العاتية بالمضيف. سمع الحبال تعول.. واطراف المضيف تخفق مثل جناحين كسيرين.. تلفع بيشماغه وجلس في باب المضيف. رأى الغيوم تزحف، لم يعد للنجوم أثر يستدل به على الوقت. ساوره خوف على مصير فرسه. أسرع يقاتداها الى "رفة" المضيف: وفي الصباح الباكر انظف المكان من الروث.. لاتحتمل هذا البرد مع الجوع.. ولكن ما الحيلة؟ لو تسللت الى مرابط خيل الشيوخ لعثرت على شيء تأكله.

كان عليّ ان اقوم بهذا قبل العشاء.. أما الان.. فالحارس لا يرحم وطلقة في هذا الظلام الدامس "واروح بوله بهوره!".

عصفت الرياح بقوة، فارتج المضيف وتمايلت اعمدته، كأنها في الغابة - لما تقطع بعد- تذكر بيته والغنم: انها نفس العاصفة.. اجتازت الهور وجاءت تلاحقني! ربما ختل كل واحد في زاويته... متواكلين خائفين.. واذا تحركت الغنم اكتسحتها العاصفة.. حدث شيء مثل هذا للوحيلى قبل سنوات.. واذا لم يتعاونوا رجالاً ونساء على احكام مرابط البيوت والوقوف بأطراف الغنم ستقع الكارثة -والستار اللّهُ-.

انخلع اقرب عمود من مكانه، سقط غير بعيد من وصادته، هب مذعوراً متشائماً: "منيه واللّهُ شكفها" لو كانت وصادتي مقدار ذراع ابعد "جان رحت لا بزكطة ولا بتعنقصه!".

تحسس مكان العمود، خلال الظلمة. أعاده الى موضعه. سرعان ما تمايل العمود منذراً بالسقوط مرة اخرى: اذا لم تحكم الحبال انهار المضيف "المهجوم" على رأسي.. لا بد من شخص يعاونني.

شد حزامه، تلتئم جيداً. لف جسمه بعباءته، وخرج لينادي الحارس. كان الظلام حالماً في الخارج واسلاك التلفون والكهرباء ترسل أصواتاً اشبه بعويل الثكالى: ليست بهم حاجة للمضيف لا حارس ولا بطيخ.. ولا مفر من القيام بالعمل..

شرع يشد الحبال، ومغالبة الريح المعاندة، التي عبثت بعباءته وزبونه. استشعر الوحدة، كأنه في صحراء موحشة، لمع ضوء سيارة على الطريق العام: رجع الآن من الكاوليات!! ما الذي يهمه؟ هل يركب فرساً مثل فرسي

الجائعة؟ انطفأ ضوء السيارة. لمح من بعيد ضوء آخر.. كان يراقبه، كلما احكم واحدا من حبال المضيف انطفأ الضوء الثاني قرب مكان الضوء الاول: لو كانت الكاولية بغيته لاحضرها الى قصره.. مثل أيام زمان! ولكنه قال لداود "چن احنا رايعين للكاولييات.. هذا يعني اتخاذا الكاولية ستارا لشيء ما. لا يعنيني الشيء الذي يقصدونه "نغلة ابو الجوك من تحت ليفوك" المهم ان اعرف ماذا يريد.. وأن تنتهي هذه الزوبعة "والله يستر على أهلي والغنم بهالليلة الكشرا".

سمع شيئاً كأن جسماً ثقيلاً يسقط في باب المضيف. أجفلت الفرس. ركض الى باب المضيف. رأى شبح سيارة يدب على مهل.. وتبعته اخرى: بلا مصابيح؟ ما معنى هذا؟ "س ووس الله يكفيني شر هالملاعب!" تكور في مكانه عند الباب، يرقب السيارات.. توهم أنها كثيرة.. سمع فرقة باب الحديدية.. وأبواب السيارات تغلق بعناية .

جافاه النوم تماماً. جلس في مكان الكهوجي.. احتضن الرماد الدافئ.. راح يلف ويدخن مشئت الذهن. بدا المضيف بظلمته الحالكة، وتقصف أطرافه يوحي بكل شيء الا الطمأنينة..

سمع محرك سيارة يدور.. ومحركاً آخر -زحف الى الباب مرة اخرى. رأى شبح السيارة يدب عائداً من حيث أتى: لا نهاية لهذه المخاوف أبدا. وكل ما يدور حولي نسيج شباك -يلتف حول عنقي -كائنة ما كانت النتائج -الضحية انا- ان فشلت ملاعبيه مسحوا به الارض واستولوا على الغنم. وان نجح - كما يقول داود- تعرضت لحساب منكر ونكير- يا الهي اريدك ان تكون بجانبى.. لا أستطيع الوقوف بمفردي لمصارعة هذا العالم المتآمر

في الظلام..

منحه نور الفجر شيئاً من الطمأنينة. اقتاد فرسه الي مربطها الاول، جمع الروث الذي خلفته، وألقاه بعيداً، ثم جلس ينتظر الكهوجي.

أدهشه استدعاء الشيخ له قبل طلوع الشمس: كان ينام الى الظهر.. مرة تغديت مبكرا وجئت لمواجهته فقليل لي لم يستيقظ الشيخ بعد! والان يدعوني قبل طلوع الشمس والطور بين يديه؟!!

- اتريك ويأي..

- طال عمرك محفوظ..

وتعثرت اللقمة في زردومه، رغم نعومتها خبز حنطة "جنه اذان صخول" وزيد وعسل.. لاينقطع خيطه الملعون -رفع اللقمة عاليا.. ولم ينقطع خيط العسل الرفيع. مد كفه الثانية فالتف عليها خيط العسل "طلعت زغبوت" لطح كفه على استيحاء. وضع اللقمة في فمه فتشبث طرف العسل بلحيته: "الماعرف البخور يحترج صرمة!" أما هذا فلا يشبه لحم الغنم.. قال مرة - أنهم يأكلون لحم الخنزير تشبهاً بالانكليز. فليكن لحم آفاعي. أه لو يتكلم ويحررني من كابوس الانتظار والقلق.. "اسجيك يا كمون"!

وضع الشيخ، استكان الشاي، جانباً وقال:

- صالح.

- عونك امحفوظ..

- ولو الشياه عزيزات عليك.. لكن مع الاسف، مجبورين على بيعتهن

كلهن..

(أمن أجل هذا طلبتني؟ وتشفع الطلب بالاسف! لا بد ان الله وقف

بجانبي فعلا.)

- محفوظ أنه والغنم واولادي وكل عيالي فدوه الك (أقسم بشرفي أنك منافق.. وتهبّل الفرصة لتضرب ضربتك يا ديّوس!).
- أشكرك. هسه المهم بيعة الغنم كلها..
- محفوظ گول. وأنه حاضر.
- لازم بيومين او ثلاثة تنباع كل غنم الشيوخ.
- لكن يا امحفوظ الغنم ضعيفة هسه.. ذاك اليوم خادمك جلب اشجم راس انباع الجوز بعشرة.. واحنا استخيرناهن حايلات.. اسمان..
- ما يهم. بيش ما چان لازم تبع.
- محفوظ ما اظن تنباع النعجة هيه وطلها -شي على شي ازود من سبع دنانير.
- لا تطول الحجّي. كتلك بيع بيش ما چان.
- محفوظ أنه عندي فليسات.. واگدر اتگرض من صدگاني... وایبع الاعواد والحیل والطلیان الهرافي واشتري من غنم الشيوخ مثل ما يدفع البیاع شراي.. خاف يصير بخاطرك شي؟
- كتلك يا صالح- المهم بيعة الغنم- عسى تشتريها انت او يشتريها الگصاب.

* * *

شعر أن صدره لا يتسع لفيض السعادة. وربما ناءت بحمله الفرس: لا تدري فرسي أي شيء حدث في هذا العالم؟ أتدرين من يعتلي ظهرک؟! انه اسعد انسان في الوجود. هل تحسبينا سفره اعتيادية؟ وربما تتعثرين في

مشيتك؟ لو كان بمقدوري افهامك.. بأن لا معنى للعثرة.. ولا معنى لأي طارئ يعرقل المهمة.. ولا معنى للموت ابداً! أتدرين يا فرسي الحبيبة كل الغنم صارت لي وحدي - لا شريك لي بعد اليوم. لا تميز ولا تفريق كلها غنم صالح ابن حميد.. "والنعم والثلث تنعام.. ابوك يامهيدي.. بكذ ذراعه.. اليتعب يلعب!"

انحرف عن جادة مويلحة: ربما لمحني داود.. وله افكار سخيقة وغريبة - لا يحزرها المرء.. فقد يدفعه حرصه على أموال "شيوخه" الى مرافقتي ويتدخل في العد والسعر.. ويبيدي اعتراضاته السمجة "ابو المال ابيبع والدلال ما يرضى!"

بدأ رذاذ المطر، من حين لآخر، يببل الجزء الظاهر من وجهه: ان المطر في هذه الايام يضمن ربيعاً مبكراً، ولكن الوصول الى البيت أهم. الهي "الاحسان بالتمام" احبس المطر هذا اليوم. حتى الخير اذا تعددت مصادره سبب بعض المتاعب وتعارضت نتائجه "الهي كمل جودتك لا تخلي بيها "ان".."!

الفصل الثاني

التفت "صالح" الى الوراء، وقدر ان الشمس لما تغرب بعد، رغم كثافة السحب، وتزايد العتمة، فامتدح فطنته ودقة تخمينه: قلت سوف اصل بيتي قبل مغرب الشمس مع اني لم اخذ بالحسبان رذاذ المطر المتقطع.. فحمدا لله على مساعدته.

أشفق على أهل بيته، حين رآهم يصارعون الغنم، ساعة توزيع العلف على "المطافيل" فقال بأريحية، تنتابه من حين لآخر: لابد لي من رفع مستوى معيشتهم.. في المآكل والملبس.. اذا صارت الأمور صعدا مثل بدايتها.. ولا مفر من معاملتهم برفق ابتداء من هذه الليلة..

خلص رجله اليمنى من "ركاب السرج بخفة، وقفز إلى الأرض بحيوية، رغم طول المسافة التي قطعها دون توقف..

استسلم "مهدي" لليأس مثل راكب مهرة "عزوم" جمحت بأقصى طاقتها، وعدت مسرعة.. فافلت من يده العنان، ولم يعد بمقدوره عمل شيء الا التشبث بعرفها، منتظرا السقوط في أي لحظة- حين رأى والده يتجه نحوه..

كف "جنيدي" عن صب الشعير في المعالف، وراح ينظر الى أبيه بطرف عين واحدة.. متحاشيا مواجهته وقال لنفسه بذهول: سيدي انفجار هائل يزلزل أركان البيت اذا عرج الآن على مخبأ النقود واكتشف آثار العيب..

تناولت "هدية" طرف اللجام من يده وحيته:

- الله يجويك بوية..

- هلا بوية هلا.. ميت هلا بوية هلا..

اقترب من زوجة مهدي، وهي تلوح بعصا طويلة، لتصد "المطافيل" من

غنم الشيوخ عن المعالف، تنفيذًا لوصية أذاعها بينهم في بدء موسم العلف: "غنم الشيوخ اسمان ما تحتاز علف.. بس الواجعة كلش، اعلفوها". فأمرها بلهوجة، وكأنه يردد أهزوجة:

- ابعدي عنهن.. ابعدي عنهن.. كلهن سوا.. ماكو فرك كلهن سوا...!
وشق طريقه بعناد، وسط الغنم المكردسة حول المعالف. توقف بالقرب من نعجة شقراء، ولدت توأمين في غيابه. رفع صوته مبتهجا بعد ان تلمس التوأمين:

- صلوات.. صلوات.. اثنيهن ابهام.. فال خير.. فال خير..
عجبت زوجته من سروره، لان النعجة من غنم الشيوخ وليست من شياها.

رجع "صالح" ليلقي نظرة على الشعير في المعالف. ضحك عاليًا، مثل طفل تدغدغه امه، حين رأى ولده "مهيدي" يدفع نعجة عنيدة بخمول وقال له مداعبا:

- بن! غبت عنكم يومين.. صايرين چنكم صخول ممطورة! حسبالكم صالح ينسد مجانه؟! انا اخو نايفة.. لايزليمات!!
كشف "مهيدي" عن أسنان مصفرة، متصنعا ابتسامًا، فيما كانت قسماات وجهه تنبئ بالذعر والكآبة. أحس تخشب لسانه، فقرر مواصلة السكوت.. ثم سأل نفسه بذهول: كيف السبيل الى مواجهة استجوابه الصارم بعد قليل؟.

تجرات زوجة صالح فتبعته، حين تأكدت من عزمه على مواصلة التجوال بين الغنم، أمسكته من ذراعه، وقالت بلهجة أمر:

- تعال للبيت.. تعال هدمك تنكط ماي، وما فاطن لروحك..

طاوعها بامتنان ظاهر، ورمقها بنظرة ود، قبل ان يتقدمها الى البيت.

فكر، وهو يخلع ملابسه، بالطريقة التي يعلن بها النبأ العظيم. لم يعد صدره كافيا لاحتواء الفرحة المتنامية. فضل ان يذيع الخبر على مسمع ومرأى الجميع، ليغترف من فيض السعادة كل حسب حاجته!

عدل "جنيدي"، فجأة، عن إنكار محاولاته للبحث عن النقود. وقال لنفسه كمن يقرر الانتحار: لا فائدة من الإنكار.. فالتهمة محصورة بيني وبين مهيدي.. سوف اعترف حالما يسألني: نعم لقد حاولت ان اطلع على النقود.. كان إغراء تلك النزوة لا يقاوم.. ولكنني - وأقسم بالعباس أبو فاضل- ما أضمرت سوء أبداً.. خطر لي ان اعد ثروتك المطمورة وحسب. بيد انه سبقني واستولى عليها.. تاکدت من ذلك بنفسي، حين استرقت السمع - مصادفة- الى مدار بينه وبين زوجته.

وحاور "مهيدي" نفسه: لقد دفعتني الملعونة في هاوية.. وتركتني اتخبط وسط الظلمات.. لا اعرف نهاية طريقي.. ولا مفر من الاعتراف ابدًا، ليس بمقدوري ان اصمد أمام نظراته الحادة ولجأته من الأسئلة. أجمل اعترافي بعبارة واحدة: أخرجت تراب الحفرة فلم اجد شيئاً.. كانت دوافعي حب الاستطلاع.. ولست أنكر أنها حماقة و.. حين التقت عيون الأخوين على ضوء النار، نهضت الشكوك على قدمين.. وقد ميز كل منهما الآخر ورعبه من خلال قسماات الوجه..

واختلاج الشفاه.

اختار "صالح" وقت العشاء موعدا لاعلان النبأ السار. أذاعه بنبرات

حذق في وجه "جنيدي أولا، ثم في وجه" مهيدي" فلم يلحظ أثرا للفرح. قال لنفسه: متخلفون عن مسائرتي في إدراك أهمية الخبر ومغزى نتائجه.. لا بد ان المفاجئة أذهلتهم وعقدت السننهم فحالت بينهم وبين التعبير عن الفرح وإبداء الملاحظات وطرح الاسئلة.. نقل عينيه بين وجوه النساء، فتأكد من اندهاشهن بالخبر. انتظر ولديه لبعض الوقت.. ثم زجرهم بصوت رقيق:

- اشمالكم ساچتين!! ولكم اضحكوا، اضحكوا.. افرحوا.. سولفوا، ولكم هاي نعمة چييرة.. هم صدگتوا يجي يوم ولن الشيوخ بايعين غنمهم كلها؟ واحنا نكدر نشترها بفلوسنا؟ الف رحمة على روحك يحميد بيوية. هذا يوم فلوسك!!

باچر من الصبح اذبحوا خروف لوجه الله.. اصطنع (جنيدي) ضحكة باردة. حرّك لسانه يستعطف اللقمة ان تمضي في سبيلها.

أحس "مهيدي" بالطبيخ وكأنه تراب يلتصق بزردومه. فاستعان على لقمته بجرعة شنين..

شرع الأب يحدثهم بجد واهتمام ، فكشف لهم عن مشاريع المستقبل القريب:

- من عين باچر يصير وسم الغنم كله واحد.. شياهنة وسمهن شگة يمني وكطفة يسرى وغنم الشيوخ چانت بس كطفة يسرى.. هسة سولوها شگة يمني (الف رحمة على روحك يحميد بيوية)...! وعكب باچر "بسلامة"

اخذ الفلوسو.....

الفلوس؟

الفلوس!

أين هي الفلوس؟ تعسر مرور اللقمة في زردوم جنيدي.. فطن صالح الى إمارات الكأبة المرتسمة على وجه جنيدي ومهيدي، فتساعل بقلق: ان كانوا يخفون عنه شيئاً محزناً، حدث في غيابه؟

انبرت زوجته، تبسمل وتذكر أسماء الأولياء، لتبعد الشر، وأكدت مع القسم ان كل شيء على مايرام.. وان هي الأ مظاهر التعب على وجه ولديها..

تساءل" صالح" مرة أخرى عن عدم احتفاء "جنيدي" بالخبر وهو المشاكس الذي لا يمل الأسئلة والجدل حول أئفه الأمور..

جمع "جنيدي" شتات عزيمته وقال:

- يابوية مادام انت امدير الحسبة وامدسترها، حچينا لا يزود ولا اينگص..

ابتسم الاب مزهوا لهذا الإطراء وقال:

- ميخالف.. بوية ميخالف.. ولو امديرها.. لكن راي عن راي..

التفت، قبل ان يتم تعقيبه على أقوال جنيدي، وأمر ابنته بانشرح:

- هدية بتي السبأعية.. سوي النا چاي زين. چاي زين..

البيت لم يألّف الشاي في غير مواعده الصباحي. لكن الظرف غير اعتيادي، وبسبب من ذلك، لم يتعب احد نفسه في البحث عن دوافع هذا الطلب المفاجيء..

شرب ثلاثة "استكانات" بتلذذ، وراقب أهل بيته، مبالغاً في تصور استمتاعهم بشرب الشاي. بدأ وكأنه يريد استكمال أسباب السعادة للجميع. التفت الى ولديه وقال:

- انتم ناموا.. اخذوا راحتكم.. انه انظر عشونجي.. وانتم اثنينكم مصبحيه.. الليلة ظلمة، كلش، مالازم نعتمد على ناطور واحد..
مد يده الى حفيدته "طفلة مهيدي". تلمس خدها باطراف اصابعه وخاطبها مداعباً:

- هاه جدي..؟ چنج بزيزينه ناصبة على حفر فارة!!

* * *

استيقظ مبكراً. فطالعه نور الفجر. احس رغبة في الصلاة، فحاور نفسه: ليتني تعلمتها. لقد ماطلت السيد كثيراً.. على اية حال.. لازال في العمر متسع لتعلم الصلاة.

ثم شغله ثغاء الغنم في مراحتها و"الطليان" الحبيسة في خيمتها:
الكل جائعة!!

باشر إصدار أوامره، كقائد فرقة منتصرة، فيما كان الولدان يتحركان بضمول وانكسار، صبغ الشحوب وجهيهما وقلص الخوف على شفتيهما.. وتجمعت كلمات الاعتراف بالذنب وراء الأسنان.. جاهزة للسقوط عند أول صرخة استجواب.

أمر ابنته وزوجة ابنه أن يرعيا الغنم، ولا يبتعدا عن البيت كثيراً. ويمسك (جنيدي) بندقيته. ليقف على بعد مناسب من البيت خشية حدوث أمر غير متوقع. ويقوم (مهيدي) بذبح الخروف وسلخه وتقطيعه. وتنصرف أم مهيدي

* * *

وضع (مهيدي) شفرة السكين على رقبة الخروف فارتجفت يداه. همست له زوجته:

- لا تجيب شبيهه على روحك (خالي بلاش) صير رجال!!

اعترف لها دونما حرج:

- ما اقدر اذبح الخروف.. أديه يتراعشن.. و..

رمقته بنظرة ازدراء وأمرته بلهجة قاسية:

- اتنوع خاف أحد ايشوفني.. وأنه اذبحه.. سودا بوجهي على ذبيح

الغسمه!!

أقام ظهره وتلفت الى كل الاتجاهات ثم قال لها:

- ما كو احد يتنوع علينا.. يالله اذبحيه.. لكن حظي لچ عصا.. بين

رجليچ.. عن الحلال والحرام..

أهملت طلبه ثم أجابته، بصلافة معهودة، وهي تفرق الصوف عن رقبة

الخروف:

- چا ما نفكك البين رجلك!؟

حاول ان يتكلم فأفلتت من يده رجل الخروف.

نهرته قائلة:

- الزم لي الخروف زين، لا تفضحنا.. لا تفضحنا!

حركت شفرة السجين بسرعة، على رقبة الخروف، صعودا وهبوطا..

فشخب الدم بغزارة.. وارتفع شخير الخروف، حين بلغت الشفرة فقرة من

رقيبته، أتمت ذلك في ثوان معدودات..

اهتز الخروف بقوة وهو يصارع الموت فاختل توازن (مهيدي) وسقط على اليته مقعياً. لا يستطيع تعديل مجلسه وقد أربعه منظر الدم المتدفق. رمقته زوجته بأستهانة، ثم ألقى السكين بين يديه دون ان تكلمه وغادرته مسرعة لتلحق بـ(هدية) التي سبقتها الى المرعى تتقدم الغنم. سمع (مهيدي) فرقعة داخل الربعة.. فتوهّم ان الأب يحشو بندقيته، استعدادا للتهديد. كف عن سلخ الخروف وذهب الى خيمته الصغيرة. حاول ان يتحرك داخلها زهاباً وإياباً، كانت باحتها صغيرة لا تكفي لمثل هذه الحركة. سائل نفسه، وقد تجمد وسط خيمته: والآن ما الذي اصنعه في مثل هذه الحالة؟ لا شيء سوى الهرب. فقد يطيش اصبعه ويضغط على الزناد.

تناهت الى سمعه خشخشة الزجاج. فأرهب السمع..مد عنقه من باب الخيمة. فتوضح له الصوت:

انه يكسر زجاجة -على عادته حين يستخرج النقود-لابد انه يخفي زجاجات في مكان آخر.. لم يهتد إليها جنيدي..حاول الاقتراب من الربعة، لمعرفة ما يجري، وسرعان ما سخف الفكرة وعاد الى الخروف مسرعاً: لو رأني أتلصص.. واكتشف المسروق فيما بعد.. لاتخذ من ذلك قرينة ضدي.. وطال انتظار (جنيدي) لسماع دوي الانفجار.. او حدوث الزلزال فأعاد ترتيب خطفه مع نفسه: لو ركب رأسه وحصر الاتهام بي وحدي.. وافلت (مهيدي) سالماً بريئاً أجدني مضطراً لاستعمال بندقيتي لوضع الامور في نصابها الصحيح. احمل (مهيدي) على الاعتراف بالقوة..

اقترب من الخيمة الكبيرة، وبين شفطيه سيكارة لم تشعل: لو سألني..
أقول جئت اشعل سيكارتني من الموقد..

قطع أنفاسه وتجمد في مكانه ليستوثق مما يسمع: أنه يكسر زجاجا..
لقد توقعت ان يوزع نقوده في أماكن متعددة..
خرج الأب من الربعة، ولوح لولديه، بعد اعتكاف ساعة، ونادى كالمستغيث:
-تعالوا.. تعالوا عاونوني..

بهرتهما النقود، مصنفة، كل فئة على حدة.
أمرهما بجمع الزجاج المبعثر أولاً.. وراح يلف سيكارة، متصنعاً عدم
النظر الى أكوام الدنانير..
وما ان التقطا آخر شظية على الأرض، حتى أشار بإصبعه إلى مكان
الحفرة في كوسر البيت وقال:

- أكو نكرة عتيجة بالكوسر، زبحوا اترابها وادفنوا بيها الجزاز..
حمل (جنيدي) شظايا الزجاج، وكان (مهيدي) قد سبقه الى مكان
الحفرة وبدأ يفرغ ترابها: يا الهي أنها نفس الحفرة الملعونة. ود كل منهما
لو يقبل أخاه ويلتمس عفوه..
بدأ الثلاثة يعدون النقود.. وأخيراً خص الأب (جنيدي) بالسؤال عن
التمن الكلي لغنم الشيوخ "الاكبار" و"تمن شياه" الشيخية"، أم ضاري، و"تمن
شياه زوجة ضاري".

وحين وجد نقوده المهياة تقل مائتي دينار عن التمن الكلي، قال لولده
بنبرة موحية:

-؟ گول.. خمسين راس هم ماتن. عشرة من شياه الشيخية. وعشرة من

مرة ضاري.. وثلاثين من غنم الشيوخ واحسب احسابك!!

* * *

شغل صالح بالكيفية التي يحمل بها المبلغ الضخم ويجتاز الطريق الموحش. استعاد صورة الدرب، من أعماق (هور المصندك) الى قرية الشيوخ، واستذكر كل علامة صادفته في رحلته.. أخطرها تلك المغازة التي يتوسطها شط الدجيلة القديم.. لئن رافقني (مهيدي) للحراسة فكأنني اصطحب (هدية) وربما هي اربط جأشاً ساعة للزوم. انه لا يحزم الظهر - اذا جد الجد- اما ذاك الملعون (جنيدي) فهو شجاع يركن الى بسالته ورجولته.. لكنه سيعرج حتما على بيت "عبيد المنتاز" ويرى خطيبته.. وبنظرة.. وهمسة.. يورق بعد جفاف ذاك الذي يسمونه "الحب".. وكل ما أريده أن ينساها.. ويبقى بجانبني في هذه الأيام العصيبة. فأى الشرين أهون يا صالح يا اثول يا ابن الغبرا!!

من الخير لي أن اعتمد على نفسي.. أتقلد مسدس جنيدي.. ويصحبني مهدي "حديده عن الطنطل" يحمل بندقيته "للهيبة!" وفي ساعة "الزوم" أستعملها بنفسني.

جاهر صالح بأفكاره.. وقال لأهل بيته عشاء:

- باجر (بخير وسلامة) نغبش أنا ومهيدي.. دير بالك يجنيدي.. صير نشمي.. لا تنقلب.

* * *

ما أن أشرقت الشمس، حتى كان (صالح) ينتصب فوق ظهر فرسه، وقد انتفخ صدره واحدودب ظهره بحزم الدنانير التي وضعها بين ثوبه وجلده.

وتبعه مهدي راجلا، مهرولا، متنكباً بندقيته المشوة بـ"مشط" والمهياة لكل طارئ.

وحين عبرا شط الدجيلة القديم، كانت الشمس تتوسط السماء فأطمأن صالح بعد اجتيازه ذلك المكان، وأحس جوعاً شديداً.
قال لولده كالمستشير:

- شتگول يا مهدي هذا خوش مجان.. نتغدا اهناه..
ثم ترجل قبل ان يجيب ولده.

سارع مهدي يحل بطان الخرج.. وقد تحلب ريقه لرائحة لحم الخروف المشوي. بسط قطعة القماش ونشر فوقها شرائح اللحم ووضع أرغفة الخبز على الأرض.. فيما كان (صالح) يضع "العليجة" المملوءة بالشعير في رأس الفرس. أكلا ما بين أيديهما من لحم وخبز دون ان يكلم احدهما الآخر. نفذ الأب قطعة القماش من فتات اللحم وبقايا الرماد.. ووضعها في جيب معطفه، ثم اخرج كيس التبغ وشرع يلف على مهل.. وقبل ان يضع السيكرة في مشربه الخشبي كان مهدي قد أتى على نصف سيكرته يلتهم الدخان بنهم.. حاول ان يتذكر رقم الدنانير التي يحملها أبوه والتي عني (جنيدى) بعدها وتفريقها ثلاث مجموعات: قيمة غنم الشيوخ على حدة، وهو المبلغ الاكبر.. ومجموعتين متساويتين، تقريبا، من الدنانير احدهما لأم الشيخ والثانية لزوجته: تسعة آلاف.. ربما عشرة الاف.. بدا له مبلغ العشرة آلاف دينار أشبه بالأساطير التي طالما سمعها عن الكنوز المحروسة بالجن.

اقتحمت ذاكرته دون مناسبة جريمة صگبان بن حسين الذي أغراه الألف

دونم -ميراث أبيه- فأغتاله.. تأكدت للناس جريمة الابن ولكن أسباب
الإدانة لم تتجمع ضده بالنسبة للمحكمة فاكتفت بسجنه سبع سنوات..
وحالما غادر السجن اغتاله أخوه..: يا لها من جرائم بشعة.
فرك عقب السيكارا بين أصابعه فلذعته النار بشدة.. ونهض على عجل
وقال لأبيه وهو يتوجه نحو الفرس:
- اذب عليجتها.. حتى نتيسر..

* * *

بلغا قصر الشيوخ قبل مغرب الشمس بقليل.
فسمح لصالح بمقابلة الشيخ، حالما طلب الاذن، فوجده متوتر الأعصاب،
قسمات وجه حادة تنذر بالشر فتشاءم صالح، وحاور نفسه: لم تكن
مأثوراتهم عبثاً فقد قالوا "صباح المير ولا تماسيه" وها انا اختار المساء
بالذات.. "اللّه يستر من تاليها.. اليوم يگطف الجلب بالعميته!".
كان صالح قد رتب في ذهنه بعض العبارات الضرورية يقدم بها المبلغ:
اعتبر الغنم كما كانت هي غنم الشيوخ.. واعتبرني واهل بيتي من ممتلكات
الشيوخ و...

وجد نفسه اعجز من ان يقول عبارة واحدة والشيخ في مثل هذا المزاج
السيئ. اخرج لقات الدنانير من صدره.. ونهض ثم رفع يديه الى أعلى..
أمال جذعه جانباً وقام بحركات كأنه راكب جمل مسرع لتتحرك لفة
الدنانير الكبيرة المحصورة بين ثوبه وظهره.. فأستاء الشيخ من حركاته..
لكنه كتم غضبه..

وضع صالح أمام الشيخ ثلاث لفات وقال:

-محفوظ هذا ثمن غنم الشيوخ..

وهذا غنم الشيخية..

وهذا مال "مرة الشيخ" ..

فجزره الشيخ بقسوة:

- گوم! حلكگ جايف. امسويها مثل صراير العطار.. هذا مال مرة

الشيخ..

ذب الفلوس وولي.

* * *

ود (صالح) لو يغادر مضيف الشيوخ في عتمة المساء، ويمضي ليلته عند داود -في قرية مويلحة- لكن (مهيدي) بدا مجهدا، غير قادر على المشي.

وضع رأسه على الوسادة، بعد طرد الوساس التي ألت به. وقال

- جنيدي ما ينقلب بالنظاره -والناطور اللّه-..

فأجابه مهيدي بغم يملؤه النعاس:

-على ما عدّيت!

صحى مبكرا، فأيقظ ولده:

-أكعد.. أكعد..

نمشي نتريك عد بيت داود. احسن ما انظّل نربي اهناه مثل گوآم ابو

الذر.. هالمهجوم يخلص من البرد والوحشة!

حين وصلا بيت داود لاحظ (صالح) علائم التطير على وجه ابن أخيه..

وقد تدرع بحزام العتاد، والبندقية الى جانبه. ثم فطن الى مهرة داود

مسرجة ملجمة.

-اشعندك يداود؟ اشوفك مزور وجاعد على ريبه؟!

-هيچ ماكوشي..

- گول.. گول.. بروح ابوك.

أنه ما يخفي عليّ شي.

قرب رأسه من عمه وقال هامساً:

-ثورة.. ثورة..

استاء صالح من لفظ "ثورة" وحاوّر نفسه: في كل يوم ثورة.. هل جاء

دور المختار ليقتل على يد تائر جديد؟! ولا بد أنها باسم الشعب كذلك!

وسأل ابن أخيه:

-شنهي من ثورة هاي؟

-هاي ثورتنا..

ازداد غمه وسأل نفسه قبل أن يسأل داود:

بالأمس ثورة الفلاحين واليوم ثورة داود.. وغداً ثورة السراكيل.. اما من

ثورة للغنامة!!

-وهسه وين وصلت ثورتكم؟

-اللّه كريم.. بعدها موش كلش ناجحة.

تناهى إليهم صوت (عوده الكبر) مزجراً:

-واللّه باللّه نذبح الرجعيين مثل الغنم.. يو ارواحنا يو ارواحهم.. ما منها

چارّة!

تلون وجه داود فجأة. استحال الى لون التراب. تعترت اللقمة في زردوم

"صالح ابو البينة"، وسأل ابن أخيه همسا:

-هذا شعنده يترايد؟

-هالمنعول والدين واجف لي عاثورة. صار لي سچينة خاصرة لكن انشالله باچر يو عگبه اخليه بيول بالتنكه..

أحس صالح بحاجته للتبول، وأنه لا يحتمل البقاء أكثر من دقيقة، تناول الابريق وقصد الخلاء مسرعاً..

رأى خيالاً يطلق لفرسه العنان، من قرية (العلوه)، راقبه حتى ترجل في بيت عودة الكبر: بعثت متاعبي من جديد "بعرس اليتيمه غاب الكمر!" يوم أصبحت الغنم كلها ملكي.. قرر داود أن يصنع ثورة!!

ويصرخ "ابن كبر" مهدداً متوعداً.. وها هو رسول الشؤم من قرية العلوة.. يتعين عليّ مغادرة "البترا" حالا ليس البقاء لصالحي "البيگعد يم الحداد لازم يلوحه شرار" وقد يعتبروني مساهماً في ثورة داود ويتسألون: لماذا -اذن- جاء معه ولده.. والاتنان مسلحان؟ وتبدو التهمة في غاية الوجاهة:

-أظن نمشي أحسن؟

فأستحسن داود اقتراح عمه وأجاب:

-ايه احسن. روحوا ساعة كبل.. أخاف يحطون بجيتكم شي. لو صارت خرابيط (الله لايسوي شي).

-عز الله امشي.. كبل ما يجبعوني بعليجة فارغة.

-اتوكل على الله.. امش. وبعد اشچم يوم توصلك اخبارها وتفرح

انشالله..

أعرض صالح عن كلام أبن أخيه. وحاور نفسه:

لقد ولت أيام الفرح وأصبحت في "عرف هدهد" قلبي يحدثني بان أي خلل في هذا التوازن القائم بين الشيوخ وبين الفلاحين هو مجلبة لمتاعبي ومن يدري يا داود لعل يوم فرحك هو بداية أيام احزاني؟!

تشاعم (صالح)، اذ توافق خروجه من بيت داود في لحظة مغادرة فرحان بن سويلم لبيت عودة الكبر.

وأنها لمصادفة مزعجة ان يكون هو فارساً يتبعه ولده، بينما يقتفي آثاره (فرحان) على ظهر فرسه ويتبعه عودة الكبر راجلاً!!

حالما وصل (عودة) اعاد (ملا نعمة) تلاوة الرسالة:

" ٨ اذار ١٩٥٩

العزیز ابو سعد

تحية..

احسب ان ما يذاع من راديو بغداد يخفي أمرا خطيرا، فلا تسمحوا لعبارات التطمين بتخدير يقظتكم..

يجمل بنا التصرف حالا.. واقترح وضع المنظمة في الإنذار.. واستنفار كل الفلاحين الطيبين.. لتشكيل نقاط حراسة في مفارق الطرق المؤدية الى قصور الإقطاعيين: بيت مهلهل وبيت صلال وال طرفه.

انتظركم بعد مغرب الشمس تحت قنطرة (البترا). والى حين وصول التوجيهات المحددة من المدينة..

استبد الحنق بـ(عودة الكبر)، فضرب جبهته بباطن كفه بذعر:

- راحت الجمهورية! هاي نتيجة التراخي.. وسياسة الملاحس!!
انطلق الفلاحون، بعيد غروب الشمس. واتخذت كل مجموعة مكانها
المعين.

جلس "ملا نعمة" ومعلم القرية مع مجموعة من الفلاحين عند مفرق طريق
بين مهلهل.

حوّل المعلم جهاز الترانسسستور الى محطة أخرى..
ضرب (الملا) كفاً بكف وتساءل غاضباً:

-هذا الحجي اشيفرق عن الحجي اللي تديعه محطات الاستعمار!!
وضع المعلم جهاز الترانسسستور جانباً، وتوجه الى الملا بشهية منفتحة
للفقاش.. تحول الى شجار.. ارتفعت الأصوات.. فنبههما أحد الفلاحين الى
حقيقة كونهم في موضع كمين وليس في ديوان القهوة..

* * *

مساء العاشر من آذار، احتجبت النجوم وراء السحب الكثيفة وكانت
الظلمة حالكة، عندما تسلل كاتب الشيوخ (ملا علي) الى بيت صهره
(داود) في قرية "مويلحة"، أمر ابنته "زينة" ان تستدعي (عبيد المنتاز)
بطريقة بارعة لا تلفت النظر. وأن لا تذكر اسمه أمام أحد من أفراد عائلة
عبيد.

وقف الرجلان تحت ستار كثيف من الظلام في باحة الحوش حاولت ان
تسمع شيئاً، فلم يتيسر لها ذلك. كان تنفسهما أوضح من كلامهما
المهموس، اقترب منها أبوها، حتى صدمتها نتانة فمه، وهمس:
-اطلعي ويانا.. عدينا من الجلب.. واوكفي بالباب لما نرجع حتى لا ينبح

علينا المحجوم..

بدا لها الأمر مربعاً. عجبت من مجيء أبيها. على هذه الصورة، ولم يرافقه زوجها. أتت على كل الاحتمالات، فلم يسعفها تفكيرها بالوصول الى شيء.

وازداد عجبها حين تذكرت دخول أبيها إلى الحوش دون ان ينبحه الكلب..

بعد قليل رجع عبيد المنتاز يتبعه أبوها.. وكل منهما ينوء بحمله.. وتكرر الرواح والمجيء.. وفي المرة الاخيرة جاء معهما داود..

شرع (عبيد المنتاز) ينقل الحاجيات الى بيته ولما اطمأن كاتب الشيوخ الى نتائج مهمته همس بأذن داود بضع كلمات، وغادر الحوش على عجل. تساءلت (زينة) بذعر عما يجري.. فأجابها زوجها (داود) بصوت يشبه فحيح الافعى:

- هذا سلاح الشيوخ وعتادهم اخفيناه عد بيت عبيد. بيت عبيد مامون محد ايشك بيه.. من حيث هو "امين الصندوق" مال الجمعية الفلاحية..

استفهمت زينة عن أسباب هذه الإجراءات فأجابها داود:

- يمكن تطلع مفرزة إفتتش قصر الشيوخ.. انلاصت الامور!

* * *

صباح الثاني عشر من آذار، وقفت ثلاث سيارات عسكرية في باب قصر بيت مهلهل.. وانتشر الجنود وافراد المقاومة الشعبية حول سور وحوش العائلة..

طلب أمر المفرزة من احد خدام القصر ان يدلّه على بيت (داود). ذهب

الخدام ومعه ثلاثة جنود ومقاوم شعبي، الى قرية مويلحة، واقتادوا (داود). وبعد دقائق وصلت سيارة مسلحة تحمل هلال الصلال مخفورا.. ثم تبعتها سيارة اخرى، فيها حامد بن حسين الطرفه.. فضم اليهم الشيخ ضاري بن فالح المهلهل.. وحشروا جميعاً في سيارة واحدة تحت الحراسة.

* * *

صباح الثالث عشر من آذار اقترح (عبيد المنتاز) على الفلاحين المجتمعين في ديوانيته ان يوقعوا التماساً للزعيم.. يطلبون فيه أعدام الشيخ ضاري على عتبة باب قصره، جزاء وفاقا لما اقترفت يداه. وليصبح عبرة لكل متآمر على سلامة الجمهورية..

فصار اقتراحه موضع اخذ ورد.. ولكن الاجماع تحقق على ارتفاع سمعة (عبيد) الوطنية.. ونقائه الثوري.. وجاهر بعض الفلاحين بما دار في خلده:

- صدك لو گالوا الزلم مخابر ما هي مناذر. اثارى عبيد وطني، حيل حيل، ازود من الكل.. على گولته هوّه: مناضل!!
واجابه فلاح آخر:

-أي والله.. ما چنا انعدر وطنيته مثل ما هيّه.. طلع مناضل من صدك..

* * *

تكرر غياب مطشر بن حمزة عن بيته -وفي كل مرة يجيب على أسئلة أبيه:

-الليلة عندنا حراسة على الجادة، انخاف من المتآمرين..وكان يتسلل، بخفة الثعلب، الى بيت داود، ليجد (زينه) في الانتظار، مرتدية أفخر ثيابها

وقد هيأت الفراش معطراً..

* * *

راقبت الشمس، المنحدرة نحو مغيبها، بعين الصائم الذي يتعجل الافطار. رجعت الى مجلسها في باب "الجمالي" وعاودت تكسير الحطب، ترصف العيدان في "المنقلة" بعناية، تحاول ان لايزيد العود طولاً عن سابقه. بدت العيدان وكأنها تصصف للزينة وتجميل المكان، اكثر منها طعاماً للنار.. وفي كوخ المطبخ يتصاعد البخار من قدر كبير، بلغ الماء حافته، والى جانبه "طشت" نحاسي واسع، يتسع لاستحمام شخص سمين!، توسطته صابونة و"ليفة" وبجوار الطشت وعاء معدني، شف مأؤه عن "طين خاوه" ترسب في القعر.. وبجوار الاناء صخرة (مجلفة) وفوقها مشط خشبي "شمشار".

نظرت الى ثوبها "القديفة" الاخضر، المنشور فوق حبل يقطع "الجمالي"، يستعمل بمثابة شماعة لتعليق الملابس. لم تكن تميز الثوب عما سواه من الثياب، حتى الليلة البارحة.. لكن (مطشر) بالغ في إعجابه بجمالها وهي ترتديه مستدركاً بحسرة: لو كان اطول مما هو عليه قليلاً.. شغلت بالثوب على مدى ساعتين، بعد الفطور. فنقّت "ذياله" فوجدته طيتين.. فأزاد طولاً أكثر مما قدرت.. وقررت ان ترتديه الليلة: دون ان تلفت انتباهه الى ما طراً عليه..

استعادت كل لفظ قاله، بعد أن أجهده حملها بين يديه، متسائلة ان كان من فرط إعجاب بجمالها، أو معابثة طرأت له فأوردها دون قصد: انظر اليك مبعدة أذرع، مقبلة مدبرة، فيساورني إحساس بأنك أقصر

مني كثيرا.. لكن دعينا نلتصق ببعضنا..

أنظري كل عضو في جسمينا يوازي نظيره.. حتى.. (الحتى!!) ولكن شفيتك يبلغان حاجبي بسبب من طول عنقك "الغزالي" انه أمر مثير! واتخيلك مثل "لعابة" الاطفال الى درجة التوهم، بأنني قادر على اخفائك في جيبتي..

لكنني تعبت جداً عندما حملتك بين يدي!! ان لك جسم منحوت من مادة غريبة وثقيلة الى حد لا يصدق!

قالت لنفسها بتصميم: سأرغمه الليلة على ان يذبح الدجاجة بيديه.. واشترط عليه ان يأكل نصفها.. لا بد لي من تعويده على الأكل بين يدي.. فأنتني استمتع لمراه وهو يمضغ الطعام -ولكن ليس بالطريقة التي يأكل بها الآن- أريده ان يقبل على الطعام كما يقبل على التقبيل!

سمعت صراخ طفلها (سليمان) خارج الحوش فركضت إليه، وحين وصلته، كان قد استبدل الصرخة بضحكة، وعاد الى اللعب مع أقرانه.. فأسرت الى نفسها: كلما أكثر من اللعب.. كان نومه أسرع.

تطلعت ناحية الشرق، قبل ان تدخل الحوش، فرأت قطيعا من الحمير، يتقدمه فارس ملثم، ويتبعه راجل، وضع أطراف "دشداشته" في حزامه، فكشف عن ساقين بلون التراب.. دقت النظر فعرفت الفارس: انه صالح ابو البينة.. يا للخيبة. وضياح الآمال! أنهم يتوجهون الى هنا.. يعتزمون المبيت عندي..! أهكذا ببساطة اتركهما يجلسان في الربعة وقد هيأت لقضاء ليلة من ليالي العمر.. ويعبثان بجمر المنقلة المعد لشاي السمر والمناجاة!! وبدلا من همس (مطشر) العذب أمضي ليلتي مصغية لنهيق

الحمير.. وسعال صالح أبو البينة!؛

نشط ذهنها بحثاً عن مخرج من هذه الورطة. فجأة أسعفها الذكاء..
فأسرعت تستقبلهما عند مشارف البيت.. متصنعة الارتباك، متظاهرة
بالرعب.

وقالت بصوت حملت نبراته الترهيب:

- وين عمي؟ وين عمي أبو مهدي؟ لا ايشوفك احد!

ثم سارعت توضح أسباب التخويف، بلهجة تفقد أشجع الرجال رباطة

جأشته:

الحكومة تبحث عنك ليل نهار.. والسيارات المسلحة تجوب المنطقة
باستمرار لهذا الغرض.. وبسبب من ذلك ألقى القبض على ابن أخيك
(داود) وهو يتعرض الان للتعذيب بقسوة -ليدلهم على منزلك.. وان الشيخ
معتقل.. وثمة إشاعات بأنه اعدم.. وقد صادرت الحكومة كل ممتلكات بيت
مهلهل، بما فيها الغنم، واني خائفة عليك من عقوبة الاعدام!!
تجمد صالح فوق السرج. تلبد ذهنه تماماً، فقد مقدرته على الحركة
والكلام. طال انتظارها لمغادرته المكان.

فعاودت الترهيب بلهجة زجر:

- كبل ما يشوفكم احد.. اشردوا.. اشردوا..

استفاق (صالح) من ذهوله، فأطلق آهة مشروخة وهمس:

- آخ يمّه! فوك حلاله حل اجتاله؟!.. ولك يمهيدي شنق.. انوب وراها

شنق -"هذا الخفت منه وطحت بيه!"

عود اجينه نشتري شعير علف للغنم، لگينه اخبار الشوم چدامنه..!

لكز الفرس بعقبه، دون رحمة، والتفت الى (مهيدي) قائلاً:
ما يرد روسنا غير الهور. وراها شنق يمهيدي، شجابه لديرة الشيوخ،
شكو عليه ضاري، اخذ الفلوس وخلاني حاير بالغنم وعلفهن.. ثم كرر
ثانية: شنق يمهيدي، وراها شنق!!

الفصل الثالث

اصطف أهل "العلوه" بجانب ديوانية ملا نعمة، يجيلون أنظارهم في صفحة السماء، حيث غربت الشمس، مؤكدين لبعضهم البعض ان لابد من رؤية الهلال الليلة: فلا غيوم كثيفة ولا غبار، وعدة الشهر قد اكتملت..

- هناك..

- ما اشوفه..

- فوك قصر الشيوخ..

قرب إصبعة من عرنين الملا، ودل به على الهلال:

- اتنوع على إصبعي، اتنوع عدل.. تحت الغيمة الزغبيرونه..

كف (ملا نعمة) عن مراقبة الهلال، وركّز بصره على طريق السيارات

(الفرعي) ثم أعلن:

- اجتنا سيارة..

قال فرحان بن سويلم، بعد دقائق:

- ام الجيب..

لوح (فاضل) بذراعه، من خلال شباك السيارة، قبل ان تقف، تحية

للواقفين..

فهتف (ملا نعمة) مستبشراً:

- شفنا الهلال بگصتك! عيد المبارك..

ترجّل كامل وقال:

- صدگنا بوعدنا؟ وصلناكم جبل ما تشوفون هلال العيد..

تبعه (محمود الخزاعي) مترسماً خطاه، محاكياً حركاته، خشية الوقوع

في خطأ عرفي. لأنه لم يألّف حياة الريف، ولا يعرف الكثير من تقاليد

ساق فاضل سيارته إلى بيت "سويلم الصكر" بعد نزولهما، فقال (كامل)
لعمة:

- احنا مجموعتين: النسوان خطّار خوالي.. والزلم خطّار عمامي!
ضحك ملا نعمة، وردد هوسة معروفة:

- يا كصاب ابو حسين جو..
نص ذوله ونص ظلوا غادي!

ساعد (فاضل) أمه وشقيقته على النزول.. ثم جاء بالسيارة حتى
اقتحمت الواقفين، وهو يقرع الهورن على نحو عابث.

أوقف السيارة، ثم أطفأ محركها.. ترجل وردد على لحن غير مسموع:
- سيارة وقصر وأحضرية..

- سيارة وقصر وأحضرية..

أشار بإصبعه، قبل أن يعانق المستقبلين، الى سيارة "الجيب" وقال:
- هاي السيارة "أيها الأخوة!"

وأما "القصر" فهو بالكرادة "أيها السادة!"

وأما الحضرية (اللّه يستر عليها) جاعدة ابنت اهلها.
"أيها المواطنون!"،

انطلق الضحك، مثل هلاهل الفرح..

لم ينتظر نهاية ضحكهم، بل سارع يسأل خاله (سويلم الصكر):

- وانتم، خالي.. وزعوا عليكم سيارات يو بعد؟!

افرد "سويلم" أصابع كفه اليمنى وحركها في الهواء مع قوله:

- تهى بهي!! انوب سيارات؟!

يا خالي اشيجملنا.. كون كل بيت سيارة! انجوم انعارج صخره.

خبط (ملا نعمة) على هيكل السيارة، بأطراف أصابعه، وقال:

- اعرفها مثل ما اعرفك! هاي سيارة شوكتت المقاول. يا ما ركبت بيها..

ايام چنت سركال عمال -على كولتك-!

حرك (فاضل) رأسه موافقاً وقال:

- حسبالي ما تعرفها.. واكشخ بروس اهل العلوه!! تمام.. طلبتها على

گد ايام العيد..

ازدحمت الديوانية بأهل القرية، ففكر الملا مع نفسه: انها مصادفة

رائعة.. ان تقترن فرحة الصائمين بروية الهلال -مع مقدم ولدي أخي

وصهرهما (الخراعي)..

وتخيلت (أم فاضل) بيت شقيقها "سويلم" كأنه يستعد لزفة عروس..

حينما توافدت نساء القرية، من مختلف الأعمار، لتحيتها والتعرف على

أبنتها (كميلة) التي تزور القرية لأول مرة، عروس يصحبها زوجها

(الخراعي). ومع تزايد اهتمام النساء ب (كميلة) وإظهار إعجابهن بفتنتها..

تزايدت مخاوف الأم من عيون الحاسدات. وصارت تردد مع نفسها كلما

دخلت البيت امرأة:

"نحيرج الله ومحمد وعلي" وتتلو على نحو موصول دعاءها الأثير:

"عين الحارة باردة.. بردها علي الفحل.. كف يا عين صاد.. كف يا عين

صاد.."

لم تغب عن فطنة فاضل خيلاء عمه، وزهوه بالعشاء الفخم، الذي أطعم

رجال القرية جميعا، ورجعت في الصحن الكبير كمية، لا يستهان بها، من الطبخ.

أحس مشاركة لعمه.. بدا فخورا، أمام صهرهم (الخزاعي) بما للعائلة من مكانة مرموقة بين أفراد العشيرة، فتجلى - بعد العشاء- في جده ومزاحه، مع الكهول والشبان على حد سواء.. وصارت لضحكته وابتسامته نكهة لذيدة..

انصرف (ملا نعمة) لبعض الوقت، يراقب ابن اخيه "كامل"، معجباً برصانته.. سرعان ما استذكر انطباعات الفلاحين عنه، يوم جاء مع فاضل وامضيا ليلتين في (العلوه) قال عنه "حسوني":

"... كامل الله يسلمه ضحجته عزيزة.. وحجايته بالثاقيل.. ما يعرف غير سالفة السياسة.. وقال عنه (عليوي): "...ابن اخوك الزغير زله نشمي.. لكن يا ابو سعد ابنادم ايخاف يحجي وياه.. موش مثل اخوه الجبير حجايته اتطب للكلب بساع بساع.. ويسوي ميانه ليسولف وياه بساع بساع.."

ولم يفامر احد من اهل (العلوه) في إصدار حكمه على صهر العشيرة (محمود الخزاعي) فقد اعتبروا سكوته شيئا مناسباً لاصول الضيافة: فليس للغريب ان يضحك دون تحفظ بل ولا يمازح الآخرين، في مستهل حلولة ضيفا..

اندفع كثيرون من شبان القرية، يتسابقون على الاستئثار بانتباه (أستاذ فاضل)، يسمعون حكايات عن الإصلاح الزراعي.. وعن بيت مهلهل.. وصيانة الجمهورية.. ومتابعتهم لوقائع محكمة الشعب.. كل ذلك طمعاً في

ظهور أسمائهم ضمن مقالة يكتبها عن (العلوة) مجددا، كما فعل من قبل حين ذكر أسماء حمود بن شنين وصالح ابو البينة وحمزة وملا نعمة. وأخيرا جاهر احدهم برغبته وقال:

- استاذ فاضل.. أخاف تكتب عني بالجريدة أنه اسمي حسوني العبود..

انفجر ملا نعمة ضاحكاً، واستمر في ضحكته، حتى لفت انتباه الجميع.. وحملهم على التساؤل عن أسبابها.. فأجاب:

- الشئ بالشئ يذكر!

ثم التفت الى (فاضل) يسأله:

- وصلتك رسالتي؟! أكيد وصلتك!

ابتسم فاضل وأجاب بهدوء:

- هم زين ذكرتني.. شنو يابه هالبوگه اللزمتها علي.. وتهددني بحفظ الجرايد واغلفتهن؟!!

عاود الضحك ملا نعمة، وشرع يحرض (كامل ومحمود) على مشاركته في الهجوم ضد فاضل..

حاول (فاضل) ان يبدو بمظهر الجاد، وهو يفند تهمة عمه: لأنني غمزتك بالعشائرية، اردت ان تلتصق بي تهمة الافراط في حب الذات! ودليلك الى

هذا انني ارسلت نسختين من الجريدة التي نشرت مقالتي أليس كذلك؟

ولكن دعوني أوضح الأمر.. بصراحة.. انها تجربة يصعب فهمها على

كل شخص لم يعيش تفاصيلها - على نحو معين.. انني أتكلم بجد..

أرجوكم

والله انكلم جد..

يوم ظهرت مقالتي، الأولى، في الصفحة الأدبية، غادرت البيت مبكرا -
على غير عادتي..

تلك حقيقة لا أخفيها..

نزلت في شارع الرشيد -توجهت إلى أول بائع صحف، اشتريت
نسخة.. وقرأت المقالة وقوفاً، جوار بائع الصحف.. اشتريت نسخة ثانية
وابردتها إليك..

سرت في شارع الرشيد، أتوقف عند كل محل لبيع الصحف.. اراقب
الناس، لعل احدهم يبدأ بالصفحة السادسة بدلا من المحليات..

أكرهون الصراحة!؟

لقد بدأ احد القراء بالصفحة السادسة، فتسارعت دقات قلبي، فكرت ان
أقم نفسي عليه بلطف: فأعرض مساعدة.. كأن اقرأ له الألفاظ والتعابير

وألقيت النسخة على منضدة مدير المدرسة -خلافاً لعادتي- وقد صح ما قدرت، فقرأها المدير وقرأها الزملاء..

غادرت المدرسة. وقفت عند اول بائع -فكرت بجميع معارفي واصدقائي: كيف يقرؤون المقالة.. أي أثر تركت في نفوسهم؟ اشتريت نسخة أخرى -بعثتها لك بالبريد ثانية! قائلاً لنفسي: ان ضاعت الاولى وصلته الثانية..

تمنيت لو أرسل لكل واحد، من سبعة الملايين العراقيين، نسخة من ذلك العدد (وان كانت الجريدة لا تطبع سوى عشرين الفا -والعهدة على كامل) المهم ان يقرأ الناس ما كتبت.

وفيما بعد صحح لي الاستاذ.. (وأشار الى كامل) ان يكون مبدأ أي هكذا: ليس المهم ان يقرأ الناس ما نكتب وحسب، بل ماذا يقرؤون. فقد نكتب شيئاً يدغدغ العشائرية اللعينة او يتملقها!!

هل تريد اعترافات اخرى؟ نعم. وأحب ذاتي! أي شيء بقي لك؟ عصفت بهم موجة ضحك، شارك الفلاحون فيها، للمجاملة ليس غير! استأنف (فاضل) حديثه: تخففت فيما بعد، من مرض حب الذات! فقد

ظهر اسمي في الاسابيع التالية، كمشرف على الصفحة الادبية.. ومع ذلك لم ابعث لك نسخة.. وأعفيت نفسي من عناء التجوال بين باعة الصحف..

* * *

هب الضيوف من نومهم مذعورين، على دوي اطلاقات نارية، شديدة الانفجار - خمس اطلاقات (برنو) متتاليات، حسبوها أكثر من ذلك بكثير. ثم أعقبتها زغاريد عذبة.

امتلات عيونهم بنور الصباح. فأدركوا ان ما حدث جزء لا يتجزأ من تقاليد العيد.. صاح فاضل من تحت الغطاء:

- هاي شيسموها بالخير يا ابو سعد؟ يعني العيد ما يكمل الا طرُ طرُ!! وانضم إليه (كامل) في هجومه على الملا.. ثم (محمود)، يثارون لغفوة صباحية لذيدة، أفزعتها الطلقات، فغادرت جفونهم كطيور هجرت أعشاشها مذعورة..

اجمع الضيوف على ان العيد -في نظرهم- لا يختلف عن بقية أيام الأسبوع إلا بكونه عطلة عمل.. فيما يرى (الملا) غير هذا.. ويذهب الى التاكيد بأن الفلاحين -ولا فرق بين شبابهم وكهولهم -يستشعرون بهجة خاصة في يوم العيد: ربما يعود ذلك الى الهدوء وحياة الرتابة المملة التي نحيها طيلة ايام السنة.. ونجد في الحركة والتزاور -يوم العيد- متعة تستحق الاحتفاء.. اما انتم فحياتكم هناك كلها حركة وضجيج، فمن الطبيعي ان لا تشاركونا مشاعرنا هذه..

دفع (فاضل) لحافه بقدميه وقال:

- العنده خلک ویناقشک عالریک منو؟!

وتتابع الفلاحون الى الديوانية، ولما يتم الضيوف حلقة ذقونهم وراحوا يعانقونهم مهنيين بالعيد، مقبلين خدوهم المغطاة برغوة صابون الحلقة.. همس فاضل لمحمود: -استعجل.. لا يفمك واحد ببوسة اصلية وينيم الموس بوجهك!

ارتفع صوت الأطفال، المتجمهرين خارج الديوانية، حتى طغى على أصوات الرجال في الداخل، وهم يتبارزون (مكاسر) بالبيض المسلوق - تطوع احد الحاضرين يشرح اللعبة للضيوف: يستعد لها الأطفال والصبيان قبل العيد بأيام.. فيختارون من البيض أجوده. وكلما كانت البيضة مدبية أرتفع شأنها.. بعضهم يضيف الشب الى ماء الغلي.. وآخرون يصبغون البيض بالحناء.. والشاطر من اعتنى بدجاجته قبل أن تبيض.. وفي النهاية يتبارزون: من كسر بيضة خصمه، بحد بيضته، كسبها وأكلها هنيئاً مريئاً! ضحك (فاضل) وقال:

- اما لعبة برجوازية من صدك! اتصور علاقات الناس بالمجتمع الرأسمالي..

أجابه ملا نعمة، وهو يحرك دلة القهوة، ليخفف من حدة غليانها:

- ياهو العنده خلک ویناقشک على البرجوازية من الصبح؟!

- هاي وين، زيچ وين يا ابو سعد.. أني جبتها تازة تلبط.. هاي مالك ستوك ما اتفيد!!

تدفق الفلاحون من جميع القرى الى ديوانية "ملا نعمة" مثلما كانوا

يبيرون صبيحة العيد الى مضيف ابن مهلهل. كانوا يطبعون القبلات على
خردو الضيوف -واحياناً على الجانبين- فهمس محمود لفاضل:
- بيناتهم يتباوسون ويطخون چتف بچتف، لكن ويأنا يسوون المباوس
علصفحتين.. ويمصون اخدودنا مص.. اييين استحلوها!؟
اجابه (فاضل) مبتسماً:

-بالجير والجهنم. هاي الردتوها! اتلحون على تحالف العمال
والفلاحين.. حيل وياكم! خلهم ايطبقون التحالف!
تحتم على أهل العلوّة أن يخرجوا من الديوانية، لافساح المجال أمام
المهنتين الوافدين، من قرى بعيدة.

استحوز منظر (عبيد المنتاز) على انتباه الجميع، وهو يضع شيئاً ما في
طية (عگاله)، لمع تحت ضوء الشمس مثل نجمة الشرطي الهجان، وعلى
صدره صورتان للزعيم.. وحالما استقر به المقام، وسط الديوان، توضح ان
الذي في عقاله "حمامة سلام" معدنية.. فلم يعد السكوت بمقدور (حمزة
الخلف). توجه الى (عبيد) يسأله بجرس معين:

- ابو نجم اشلون صحتك؟

- الحمد لله بنص الخير..

- زين.. زين كلش!؟

- لانتلوف.. أحچيها ابسراحة.. اتريد تنشدني على الصور.. وعلى
حمامة السلام.. موش هيچ؟ هذا مگصدك؟

- أي واللّه يا عبيد ما گدرت على روحي!

- تگدر ما تگدر بكيفك. عسى أظك راسك بالحايط. أنه من أنصار

السلام.. على ظهر ابو شهباء.. ومن كونك موش لراضى أنه شيوعي ونص.
ضحك الجميع، بمن فيهم الضيوف و(ملا نعمة) وخيل لـ(عودة الكبر) ان
ملا نعمة مسرور للغاية لتصرف "عبيد" وأجابته وفكر: انه ربما غير رأيه
بعبيد.. فقبل ثلاثة أيام أعلن (عودة) داخل اللجنة الحزبية ان لديه ثلاثة
مرشحين هم: عبيد المنتاز، ومطشر الحمزة، وعليوي بن زاير محسن.
وأجابه الملا حينذاك:

- يا معود وين لكيت عبيد باللاكط؟! هذا مجسّر كحوف الدنيا على راسه..
امعّص امدبغ.. گلتوا أنريده امين صندوق للجمعية، گلنا ميخالف.. انوب
جايبه للحزب صوغه؟! هاي شلك بيها يا رفيق!؟

تحرر فاضل من بعض حرج ألم به، نظرا لكثرة الفلاحين الغرباء، فربط
فلاش الكاميرا وصوبها نحو عبيد.. والتقط عدة صور للفلاحين الآخرين.

قال عبيد المنتاز:

- هسه رضيت عنك يا أبو عباس.. چنت زعلان منك على الحجابة
الگايلها عني بالجريدة..

فقال حمزة الخلف:

- گولها ابسراحة.. منطرف حكة الجرب!

كانت الديوانية على مدى ساعتين، او تزيد، مثل باص مصلحة نقل
الركاب، ساعة انتهاء الدوام.. تستقبل أكثر مما تودع.. ويحشر الفلاحون
أنفسهم بصعوبة. وقبيل موعد الغداء خف الازدحام، بعض الشيء، فبدأ
فاضل يراقب ساعته من آن لآخر، رافعاً صوته بالدعاء:

- يا قريب الفرج يا الله!

ويجيبه الملا "بينك وبين فرج الله ساعة" ثم أنقصها نصف ساعة عند الدعاء الثاني. وفي آخر دعاء أجابهُ الملا: "عشر دقائق" في تلك اللحظة انحرف عن طريق الهور بأص كبير يحمل من المدينة وفد الشبيبة الديمقراطية، جاؤا لتهنئة الفلاحين، بأول عيد يمر والجمهورية في عنفوان قوتها.. هكذا قال رئيس الوفد، بلهجة خطابية..

فأسر فاضل لمحمود:

- تصخمننا وتعزينا!

يبين متعمدين يضربون الغدا.. شفت هداياهم نزلوها من السيارة..

- اشجايين وياهم؟

- ما ادري.. بس شفت ثلث علاليك..

انبرى احد الضيوف الجدد، يتحدث بحماس ثوري عن ضرورة المحافظة على الانتصار وتعميقه.. فخمن فاضل انه طالب ثانوية، ان لم يكن طالب متوسط -صحيح الجسم معافاه- وفكر:

ربما تأخر الغداء ساعتين.. فلا بد من إعداد طعام جديد. تضاعف إحساسه بالجوع، فالتفت إلى "محمود" وهمس بأذنه:

- اليوم راح يصير غدانا نمور من ورق -والمركة حول التناقض-.

كتم "محمود" ضحكته، وتجنب الإصغاء لجاره، مخافة ان يفقد السيطرة على نفسه، فتغلبه ضحكة في غير أوانها.

تحمس شاب آخر لفكرة الكومونات الشعبية، بعد ان أقحم الحديث عنها دون مناسبة، وراح يعدد محاسنها في الصين الشعبية، محاولاً تزيينها للفلاحين وتقريبها من قلوبهم. فالتفت "فاضل" لأخيه وسأله همساً:

- انشا الله قررتوا اتسوون كومونات شعبية بالعراق؟!

فأجابه كامل بجد ظاهر:

- ابدأ ما كو هيچ شي. هاي "مبادرات كومونية"!

- زين أني شنو ذنبي.. بطني گامت تدك ربابة.. يمكن راح ابادر فد
مبادرة يمينية.. وامشي لبیت خالي.. أكل لگمة زقنبوت.

- لا. عيب.

- وتالي. فكرك؟ هم جوع وهم كومونات.

اغتنم لحظة صمت فرفع صوته بالدعاء:

يا فرج الله القريب.

ضحك الملا وأجاب:

- دقيقتين بعد..

عجب فاضل من صدق الموعد.. ووفرة الطعام الذي فاض عن حاجة
الجميع: لابد انها زيارة مدبرة... ولو كان الامر خلاف ذلك لما اعد هذا
المقدار من الطعام..

وقال لمحمود وهو يأكل تفاحة، عرف أنها من محتويات الزكائب التي
أنزلت من سيارة الوفد:

- هاي الحسنة الوحيدة بجية رفاقنا الشبيبة!

- فاضل اذا ما تجوز من خبتك البرجوازي ترا نهايتك مو زينة.

- مو اسوأ من نهايتكم!

وتناغمت أصوات الفلاحين مع أصوات الشبيبة، ساعة غادروا القرية
مرددين "سنمضي سنمضي الى ما نريد.. وطن حر وشعب سعيد".

هتف فاضل لفرحان:

- يابه احنا هم نمضي الى ما نريد.. حتى نشوف اشچم غنّام حر

سعيد!

فجدد "كامل" اعتراضه على فكرة الذهاب الى هور المصنك وأصر

"فاضل" على تنفيذها:

- حتى لو وحدي لازم اروح للهور..

اقترح ملا نعمة حلا وسطا:

- الاحسن الصبح تروحون.. لان الطريق ما تطلع بيه غير سيارة وحده..

واخاف يصير عدكم عطل.

- الصبح افضل صحيح.. لكن عندي مشاريع هواية.. واذا ضاع عليّ

يوم، ما اقدر انفذها كلها لان وعدت الجريدة بريورتاجات هواية وعلى

هالاساس انطوني الكاميرا.. فتساءل محمود:

- شنو الغرض من روحتك للهور؟

أوجز "فاضل" اجابته:

ان رعاة الغنم يشكلون قطاعاً كبيراً منتجاً.. ولا نعرف عن حياتهم الا

القليل، أريد ان اكشف للقراء شيئاً من حياتهم.. اسألهم عن اثر الإصلاح

الزراعي.. ونظرتهم إليه.. وعلى العموم، في ذهني جملة مشاريع

لريورتاجات عن هذا القطاع المهم المهم..

تدخل "كامل" مرة أخرى وتساءل: هل تعتقد ان من السهل حصولك على

معلومات حقيقية من الغنّامة؟ صدقني أنهم يهربون حالما تترجل من

السيارة، وشعاع نظارتك يخطف الأبصار، والكاميرا مع الفلاش "يا هي

شخاطة، يا هي حمام، يا هي سامرا!"

قاطعها فاضل بحدة: حين يذهب "جنابك" الى مكان ما تكون المسألة تنفيذاً لإحدى وصايا لينين "عش في قلب الجماهير. اعرف الحالات النفسية.. اعرف كل شيء. تفهم الجماهير. أحسن اكتساب ثقته المطلقة..".
أما أنا فيعتبر زهابي للجماهير بمثابة "الخرّوعة"! تهرب الناس من نظراتي!! أريد أن اعرف ما هو الفرق بيني وبين سيادتك؟

ترأى للملا نعمة أن فاضلاً قد هجر المزاح.. وتكلم بحدة.. فأبتره قائلاً:

- المثل يَقول يا أبو عباس.. صابح المير ولا تماسيه.. واشوف اتصابح عمك صالح أبو البينة احسن من ما تماسيه.. وياجر يذبح لك قوزي زغبيرون على اساس "انتم الافندية تحبون الغوازي.. وعلواه تجيب لنا خروف من غنم الشيوخ!

عاد فاضل الى طبيعته ومزاحه وقال:

- صدك ما اقدر اشلع فد طلي من هالديوس؟!

- هنا تبين شطارتك.

- اذا مو بالتّي هي احسن.. اهدده بالكاميرا.. بس كون نلگاه.

* * *

وضع فرحان بندقيته في المقعد الخلفي، وجلس جوار فاضل، فقال

محمود قبل أن تنطلق السيارة:

- عيني فرحان.. اخاف تحتاجون استعمال البندقية.. لا تعتمد على

فاضل.. ترا يدير وجهه ليورا ياللّه يضرب!

فأجابه فاضل، ويده على "الكير" استعداداً لانطلاق السيارة:

- ومنو الطلع اول بالتهديف.. بتدريبات المقاومة الشعبية.
وجد الشمس في مواجهته تماما، عندما انحرفت السيارة في طريق
الهور، فأوقفها ريثما يضع زجاجة ملونة، تقيه اشعة الشمس، فوق
النظارة. وقال لصاحبه:

- هسه صار عندي ست اعيون!

وانصرف الى نفسه ينسق مشاريعه.. وهو موضوع بكر بالنسبة
للصحافة العراقية.. صورة القطيع اولاً.. اطرزه بحكايات عن الرعاة..
اغانيهم وعشقهم! وفلافل وبهارات... الثاني عملية تغطيس الغنم التي
تسبق جز الصوف، لن يتردد أبو البيبة في ادخال نعجة او نعجتين وسط
الماء لالتقط صورة واضحة.. والجُز.. تحقيق منفرد.. وصورة امرأة تغزل
وأخرى تبرم الخيوط.. وفي قرية "العلوة" أصور عمتي ام فرحان وهي
تنسج البسط والسجاد.. تسبق هذه العملية صبيغ الغزول ونشر السدى
على النول.. ويرى شطارتي فعلاً "راوينا شطارتك.." وأظن سكرتير التحرير
مخلصاً في قوله "إذا نجحت بها المشروع نعينك محرر دائم" وثلاثة دنانير
عن كل تحقيق.. واهم من ذلك الشهرة.. وولوج عالم الصحافة.. تكتيكات
بمجموعها تخدم ستراتيغ التعيين..

لاحظ فرحان ابتسامه صاحبه بوضوح فسأله:

- عيش تضحك؟

- منطرف التكتيكات!

- يا تكتيكات؟

- اللي تخدم الستراتيغ!

- يا ستراتيغ منهن؟

"وقعت بمن لا يرحم.. سيأخذني طولاً وعرضاً بأسئلة وأجوبة لا نهاية لها.. ويحول بيني وبين تنسيق أفكارى.. يتعين عليّ أن استخدم معه احد التكتيكات".

- فرحان لا تسولف وياي.. ترا ما أگدر اسوق اذا سولفت.
كف فرحان عن محاورته، فأنصرف "فاضل" ثانية الى نفسه:

ولابد من صياغتها بلغة تختلف عن لغة التحقيقات التقليدية.. حذار من لغة البرقيات والتقارير.. سيكون عنوانها: من.. من الـ.. من.. فيما يتعلق بالسجاد ينتهي في المضيف، ويتركز الكلام على مضيف الأمس في عهد الإقطاع.. ومضيف اليوم.. انه موضوع خصب يحتمل الكثير من حكايات خلف الدواح عن بيت مهلهل.. أما النسيج الصوفي.. يمكن تصوير عملياته في بغداد. اجعل عنوانها.. عنوانها.. لابد ان يكون جذاباً. من الـ.. من ظهر الشاة الى ظهر "الشاه" اظنه لطيفاً جداً "من ظهر الشاة الى ظهر الشاه!"
نضحت الابتسامة من شفثيه ثانية، فسأله فرحان:

- هاه.. هم رديت تضحك. عليمن؟

- على خادمك الشاه!

- إشحدّه. انگص ايده لو مدها على جمهوريتنا!

- والثلت تنعام اخوة عليا!

- تتمزهد.. ما راضي؟ واللّه العظيم انطي الشعب حرية وشوف، ماكو قوة بالدنيا تگدر عليه..

- هجم بيتكم، مثل سالفة المعيدي لمن باس السماور. زغيركم وچبيركم

- احنا ما بينا زغير وچبير..
 - لعد شنو؟ كص الگري كلکم سوا؟!
 - لا. بس اكو رفيق متقدم واکو..
 - واکو متأخر؟
 - لا، المتأخر موش متأ. .
 - فرحان يعمود لا تناقشني -ترا يفلت الستيرن من ايدي ويصير عدنا قدر. اني ضعيف بالسياقة.
- سكت فرحان على مضض. وعاد فاضل لنفسه بعد ان قدم سیکارة لصاحبه: وسيكون أروع ما في التحقيق "اذا تمكنت من ايضاحه" التأكيد على قيمة عمل الإنسان.. فالصوف الخام، وهو يحوي كمية عمل معينة يباع بثمن.. فإذا تحول الى غزول دخلت فيه كمية عمل جديدة فيرتفع سعره.. وبعد الصبغ يزداد سعره.. وحين يدخل فيه عمل الحائك يبلغ ثمنه القمة.. اذا تمكنت من إبراز هذه الفكرة دون اقحام.. او خطابية.. تصبح التحقيقات نموذجية، بلا شك -كل شيء عديم القيمة ما لم يدخل فيه جهد الانسان- وبصياغة ادبية.. وما أكثر حكايات خلف.. احسب انه واسع جداً. يحتمل عشرات التحقيقات.. وعن اللحم "من الهور الى القدور" او عنوان آخر اكثر جاذبية.. ومن الممكن التوسع فيه بحوار ممتع مع القصاب.. والجزار.. وليكن تحقيقاً خاصاً في الجزرة العامة.. وماذا عن فضلات الجزرة؟ هل تفيد منها الحقول؟ وتحقيق عن الحليب وآخر عن الزبدة وثالث عن الجبنة. انه كنز لا يفنى! ومعين لا ينضب... وأجعل من

المأثور الشائع "نايم بجزة خروف" أساسا لتحقيق طريف.. ماذا يهم رئيس التحرير لو استجاب لرغبتى، وأمر بترك الحروف على حالها، بعد نشر الريبورتاجات.. أستاذ.. الا يمكنكم الانتظار لعدة أسابيع.. لكى اطبع السلسلة في كتيب لطيف -من مطبوعات الجريدة- وليكن اسمه "حكايات عن الغنم" او أي اسم آخر تقترحه.. صدقني يا أستاذ.. ان ربح الكتيب مضمون..

اشار فرحان بكفه الى خيمة لاحت من بعيد:

- هناك بيت.. بلكى يطلع بيت ابو البينة.

اتجهت السيارة نحوه، فأعرضها قطع كبير من الغنم وفي منتصف الطريق، دل فرحان بإصبعه الى القطيع وقال:

- يمكن هذيچ غنم الشيوخ. خل انروح عليها..

ثم أشار عليه بإيقاف السيارة، بعيدا عن الغنم. جلست إحدى المرأتين وراء خميلة بردي، وحلت الثانية أزارها لتلتف بالعباءة.

ترجل الاثنان. تناول فرحان بندقيته، وسبق صاحبه. شغل فاضل بإعداد الكاميرا لالتقاط الصور.

جلست الفتاة وقد أخفت وجهها بالعباءة.. رماها فرحان من بعيد بالتحية.

- اختي الله يساعدج..

-

- هاي غنم صالح الحميد؟

- لا يا عيني.. هاي غنم علي الكشاوي..

- وهذيج البيوت المن؟

- بيوت علي الكشاوي..

- ما تندلين بيت صالح الحميد.. صالح ابو البينة؟

لا يا عيني ما سامعين بيه..

اقترب فاضل من الفتاة ليصورها، فنصحه فرحان همساً:

- لا اتجرب الها.. خاف اهلها ايشوفونا.. ويسووناً مشكلة.

التقط عدة صور للغنم، وللمرأتين من بعد غير مناسب، خصوصاً تلك

التي لبدت وراء خميلة البردي - لم يظهر منها سوى الرأس

فقال فرحان لصاحبه:

- نرجع بدرينا.. وناخذ جفة الهور الغربية.. لازم نلغي غنّامة وننشدهم

على بيت ابو البينة..

لمحا خيمة كبيرة. قدر فرحان انها بيت صالح، اتجهت السيارة نحوها،

فراحت تغلو وتهبط لوعورة الدرب. قلل سرعتها الى الحد الادنى.. وبعد

جهد شاق بلغا الخيمة.. استقبلهما شاب، حيث وقفت السيارة، فسأله

فرحان ان كان يعرف صالح ابو البينة، فأكد الشاب انه لم يسمع بهذا

الاسم ابدا..

صاح رجل من داخل الخيمة:

- ولك شيريدون؟

- ينشدون على بيت صالح ابو البينة..

- كلهم تفضلوا.. وأنه أدليهم..

كان واضحاً ان الرجل مشغول بارتداء ملابسه. استقبلهما مرحباً قبل

ان يصلوا البيت. احس فاضل بشيء من الخجل حين سبقه الكهل الى التهنئة بالعيد.. عاون الرجل ولده على تسوية الفراش، ولما ينقطع عن الترحيب بضيفيه.

- اهلا وسهلا.. يا مية مرحبا.. اهلا وسهلا يا ساعة المباركة.. اهلا وسهلا.

وحين استقر بهما المقام تساعل الرجل:

- عمي.. اشرايدين من صالح ابو البينة؟

قال فاضل بلهجة تلميذ مذنب:

- والله عمي.. هيج. نعرفه.. وردنا ناخذ فد صور للغنم وفد اشياء.. و

كرر الرجل سؤاله على هذا النحو:

- ماعدكم شغل وي صالح.. بس الصور؟

- أي والله عمي.. بس چم سؤال.. واستفسارات عن الغنم.. ايه معلومك

آني صحفي.. يعني اشتغل بجريدة..

- اهلا وسهلا.. أهلا وسهلا.. هاي بصيطة. أنه اجاوبك على كل شي.

هالتشوفني بعينك، غنام عتيج. بعد اشويه اجيب لك الغنم اهناه.. واخذ

صور على كيفك.. لمن تشيع!

رفع الرجل كل اثر للكفة، بطلاقة محياه وابتسامته الدائمة، وراح يجيب

على اسئلة فاضل بصراحة لا تخلو من دهاء: الثورة في نظره شيء عظيم،

لأنها حطمت أصنام الإقطاع التي كانت تعبد من دون الله- وفيما عدا هذه

الحسنة فلا يعتقد (بوصفه غناماً) ان ثمة مكاسب مادية يعتد بها. فتحدث

فاضل بطلاقة عن مشاريع الثورة للمستقبل -بالنسبة للغنامة-: إنشاء

المراعي على اسس علمية.. توفير الخدمات البيطرية.. تيسير العلاج الطبي.. قطع دابر اللصوصية.. والرشوة.

رد الكهل الذي أخفى اسمه بصراحة محببة: لست بحاجة الى وعود تقرب الثورة من قلبي.. قلت كلمتي وذكرت السبب، وفيه الكفاية، فإنسانية المواطن كانت مهانة، عهد الاقطاعيين، وهذا وحده يكفي لتلغقي بالثورة. اما هذه الوعود.. المراعي والمراكز البيطرية ووالخ.. ان هي الا كلمات.. لو فرح بها الغنم أمامك فإنه منافق يتملقك.. لأنك أفندي.. ولأنك جزء من الحكومة!- أما الحقيقة، فالناس لا يصدقون وعود الحكومة أبدا. ولابد من وقت طويل للقضاء على الشك.

أجابه فاضل، وهو يسجل ملاحظة أخيرة:

- يا عمي انت عظيم.. لو الناس كلهم مثلك بهالصراحة والشجاعة، ما جان كدر يحكم العراق ظالم.

جاء الغداء في وقته المناسب، بعد جوع لم يمر بفاضل طيلة حياته.

ذكره القوزي السمين بدعابته مع ابو البينة (انتم الافندية تحبون الغوازي).

شرع الرجل يقطع اللحم ويضعه بين ايدي ضيفيه، بعد ان صب كمية سمن تزيد عن الكيلو، فوق صحن الرز، وافرد لكل منهما طاسة روبة.. ثم اتبع الغداء بالشاي. ونفذ جملة وعوده: فجيء بالاغنام.. وصور فاضل عمليات التغطيس والجز.

كانت حصيلة الجولة دسمة مثل الغداء: وحديث الرجل يصلح لتطريز غالبية التحقيقات.. ان "حكايات عن الغنم" سيكون لها شأن كبير. ويتعين

علي أن أعرف شيئاً عن سلالات الغنم في العراق.. ونوعية الصوف العراقي.. ولا بد من المقارنة مع سلالات اخرى واصواف أجنبية.. اذن، يتحتم الرجوع الى مصادر علمية.. وما يدريني فقد يتطور الموضوع. ويصبح رسالة للماجستير! -التي احلم بها- ولكن.. اذا قيدت نفسي، منذ الان، بالمراجع العلمية، والدراسات المقارنة فلن يقدر للتحقيقات رؤية النور الا بعد مضي عدة اشهر..

أحسب إنني عقدت المسألة أكثر مما ينبغي وتحول الريبورتاج الى أطروحة!! وصار مثل كلب صيد ابي دلامة!.

الفصل الرابع

تكامل نسيج الرعب، سداه الرواية ولحمته العيان، ليكسو "صالحاً" وأهل بيته على حد سواء. فمنذ ايام هربه من قرية مويلحة، تطارده أشباح السيارات المسلحة وظل المشنقة يتحرك أمام ناظره، ويمتلئ سمعه بصدى استغاثة داود، من فرط التعذيب ليدل الحكومة على بيت عمه (صالح) - هكذا أخبرته (زينة) والخوف مرتسم على وجهها - طوى خيامه وغامر بالرحيل ليلا الى أعمق مكان في "هور المصندك" وبعد ثلاثة أيام زحفت مياه الهور، تسوقها رياح شرقية عاتية، فركبه الفزع من الفيضان والغرق. رحل ثانية ليستقر في هذه الدار!.. لولا عناية الله وشجاعة (هدية) لالتف حبل المشنقة على رقبتى.. الهى اعترف بمعصيتى. أشهدك أنى كذبت عليك أكثر من كذبة.. وعدتك بالصلاة فلم اصدق الوعد.. لكنك تعلم إننى في عزلة وليس ثمة من يعلمنى قواعد الصلاة.

واعترف أننى وعدتك بخمس ذبائح -نذور- لوجهك ولم اذبح الا واحدة.. ولكنك رحيم يا الهى.. لقد ساعدتني كثيرا ويتعين علي الاعتراف بأن ذكائى ليس هو الذى جعلني أقرر رعاية الغنم من نصيب النساء دون الرجال.. بوسع المرأة ان تتنكر وتخفي وجهها ساعة يداهما الغريب. وهذا أمر مستحيل على الرجل.. وان ما حدث اليوم هو بتدبير منك -ولن أنسى لك هذا الفضل- ولكن اتراهم صدقوا قولها:

"هاي غنم علي الكشاوي؟"

كرر السؤال على (هدية)، بلهجة من يعترف بحسن الصنيع ويحفظ الجميل: -بويه.. يبعد شيبى.. سولفى السالفة مثل ما هيه. زغيرتها وچيبرتها.. حتى ادبر شغلي زين.. واجدي دربي.

أجابت هدية:

-مامور المركز -الحاط بركبته المدرى شنهو الابيض- أظنه رشاش..

تجدم عليّ.. وچان يصيح عليه ابو تفگه الطويلة:

-لا اتجلبها.. لا اتجلبها..

تمتم (صالح) بكلمات غير مفهومة... واختتمها بالقول:

-ايجبون النسوان! هيچ وصلت الأمور؟

قالت زوجة (مهيدى):

- حسبالي ايگل له: لا اتعورها.. لا أتعورها.. وأضافت بلهجة المتشكك:

- واطن شفت ثلث ازلام، ظلوا جاعدين بالسيارة..

حرك (صالح) رأسه لا يريد تصديق أقوالها، لأنها اتخذت موقفا جباناً،

ولولا براعة (هدية) وشجاعتها، لاكتشف للعبة مأمور المركز. فقال يأمر

زوجة أبنه:

- انتي سكتي. ما دام لابده بعيد.. وچاد ما سمعتي ولا شفتي.. عيونچ

كامن ايغوشن.. واذانچ يوصوصن!

توجه (جنيدى) براء الى شقيقته، ان تتكلم ولا تهوّل وتخبرهم بماذا

تهامس الرجلان.. وهل لاحظت عليهما مظاهر الشك فيما قالتها؟ أكدت

(هدية): بأن الرجل الذي تعتقدانه من أهل (العلوة) كان ينظر الى الغنم

بعين الخبير.. وتعتقد كذلك، انه ارتاب في دعواها "هاي غنم علي الكشاوي

جاهر (صالح) بعزمه: الرحيل عند غروب الشمس.. نتوغل ثانية في أعماق

الهور.. نوطن أنفسنا على مصارعة مياهه، ذلك أهون الف مرة من

مصارعة حبل المشنقة!

لمح (جنيدى)، من بعيد، سيارة الجب تعود مسرعة، مثل أرنب مطارد، غير مبالية برداء الطريق ووعورته. فأشار إليها بإصبعه، وانذر أهله بسوء المصير.. هرعت العائلة تتابع سيرها بوجل، ولما ابتعدت، استنتج (صالح ابو البينة): لقد تشتموا آثارنا بعد أسئلة وأجوبة هنا وهناك.. ولا أشك في عودتهم مع قوة كبيرة لتطويقنا..

أمر أهل بيته أن يحزموا الأمتعة ويطووا الخيام، استعدادا للرحيل، وراح يردد على نحو موصول "غريج ولا حريج.. غريج ولا حريج!"
ذاب قرص الشمس في عتمة المساء، كما تذوب قطعة السكر في كوب الشاي، وابتلعت الظلمة بيت صالح وغنمه.

رمق الهلال النحيف بنظرة عدائية وحاوره في سره: بسئ المهمة أخذتها على نفسك.. التجسس في كل مكان وزمان.. نحيفاً او سميناً.. طول عمرك هكذا.. مثل الملعون مأمور المركز لا يكتفي بالسؤال والجواب بل يريد تفتيش النساء- ولولا صاحبه..وقد يكون عودة الكبر. وان كنت استبعد عنه نفحة الطيب، لفعلها الملعون وفتش هدية.. ما معنى تفتيش الرجل للمرأة؟! وما الذي يعقب التفتيش!؟

جعل الهلال على يمينه، وتقدم الغنم مسافة خمسين الى ستين مترا، يتبعه (مهيدى) راجلا، يبسبب للغنم، فيما تولى "جنيدى" حماية المؤخرة.
كان على استعداد للدفاع حتى آخر رصاصة في بندقيته.. كلما اشتدت الظلمة استهان بقوة الحكومة: الليل ملاذ الخائفين.. لو حدثت المطاردة قبل بلوغ نقطة الأمان.. أترجل عن الفرس وأحمي المؤخرة واشاغلهم بتسعين طلقة حتى مطلع الفجر.. ويكون الضغن في أقصى الدنيا حينذاك.

تطلع في الأفق الغربي، رأى الهلال يقترب من مغيبه، وحوله شعاع باهت، لا يفضل شعاع النجمة الزمنية(البايعة امها وابوها بالحسن): ومع ذلك فمغيبه أفضل من وجوده..

حزنت الفرس فجأة، مقارنة أذنيها إلى حد التماس، تحديق إلى امام وتشخر، هيأ البندقية للرمي، احنى رأسه ليتبين الشبح الذي افزعها. توثب للنزول: لم يخطر ببالي احتمال الكمين ابدا.. ظننت الخطر وراءنا وحسب.. لوت رقيبها.. تراجعت الى الوراء.. أدركه (مهيدي) ومن خلفه الغنم- أجفلت مذعورة- لحقت بهما الكلاب، فانطلقت إلى أمام وهي تنبح- سمعا نغير خنازير. إنبطح (مهيدي) على الأرض فتحقق من انها مجموعة خنازير، ولت هاربة أمام الكلاب.

في ساعة متأخرة من الليل، أمر بتوقف الظعن، ونصح بأحاطة الغنم من كل الاتجاهات، لتبقى دائرتها الى أدنى حد ممكن.

استشعر الولدان قسوة الجوع والبرد، عند هبوب نسمة غربية باردة، كأنها تقتفي آثارهم بأمر الحكومة.. وحركت الكلاب أذناها بين يدي الرجال والنساء، محومة حول الاثاث وأوعية الحبوب.

فقال (مهيدي):

- ما كوشي للچلاب؟ جوعانات خطيّه..

أجاب (جنيدي) ساخرا:

-كول ماكوشي النا.. احنا الخطيه موش الچلاب!

تذكر (صالح) ان أهل بيته لم يطعموا شيئا منذ الصباح، فأمر زوجته بتوزيع التمر والسمن..

عرضت هدية إلى إحداهن يومها، بعد هذا الحل والترحال، وفي كل يوم خطوة جديدة تبعدها عن حبيبها: (والما تشوفه العين يسلاه الكلب) وقد يتعلق بفتاة أخرى.. ينساني ويتزوج.. أه لو كان العقاب لا يتجاوز حدود الغنم.. ثم نرحل الى البترا ونعيش مع الناس.. واتزوج (عليوي).. لو كانت النتائج على هذه الصورة.. اذاً لفعلتها وقلت لمأمور المركز: نعم هي غنم الشيوخ سابقا. وغنم صالح الحميد حاليا.. وذاك بيته ولكن أبي يزعم ان المشانق تترصدنا. الشيطان هو الذي يوسوس بهذه الأفكار السوداء. استدركت لتظهر ضميرها من إثم علق به نتيجة هذا الخاطر الشيطاني فأعلنت بصوت واضح سمعه الأب من بعيد:

- انشا لله ما كوشي غير الرحمن.. بوجوههم الله ومحمد وعلي.

استشعر (صالح) بعض الطمأنينة من دعائها، لم تكن في يوم مضى كما هي الان، تحتل مكانا رفيعاً في قلبه فاعترف مع نفسه:

لو أساءت التصرف او ركبتها الجبن مثل تلك.. أو تعثرت في الاجابة لانتهينا "بشربة ماي ولكنها أنقذتنا بشجاعتها ولن انسى مشورتها -عهد ذاك- بأن لا نرسل الغنم في السيارة.. لئن انجلت الغمة.. تركتها تأخذ سبيلها.. ويتزوجها ابن الزاير.. اتساهل معه في المهر الى أدنى حد ممكن. جاهر بمديحتها، على نحو غير مألوف منه، وكرر ترديده معروفة "كل الخيل للشكرا عليجة!" فابتهجت لهذا الإطراء وقالت لنفسها: يذهب جهدي عبثا.. حتى ولو كان مع إنسان مثل أبي.

حين تبدد الظلام، وشمل الدنيا نور الشمس، ضرب (صالح أبو البينة) كفا بكف، وأعلن الندم على ضياع يوم كامل، حيث لا ينبغي التفريط بدقيقة

واحدة:

الوقت لا يتسع لتأجيل عمل اليوم الى غد.. وانتظار هبوب العاصفة
وسط الموج حماقة تكسر الظهر.. الحكيم من أرساها في مرفأ وأحكم
المرباط..

أجابته زوجته، مغمضة العينين من شدة النعاس:

-الأولاد وكعوا من التعب، خلهم يستراحون اليوم..حرك يده ليرسم

دائرة في الفراغ وقال ساخرا:

-تهي بهي.. الغاره وين؟ والتجيش وين؟ تكول خلهم يستراحون! صدك

لو كالوا: اليدري يدري والما يدري غضبة عدس!

تمدد في مواجهة الشمس.. وجد نفسه مع عبيد المنتاز. سمع اصواتاً

تقترب. قال لصاحبه:

أدركونا بلا ريب. مزق يشماغه اربع قطع.. وضع كل جزء في فم نعجة..

مخافة ان تتغي. فعل عبيد نفس الشيء مع شياها. اقتربت الأصوات أكثر.

صار يميز وقع خطاهم. كتم انفاسه. تسارعت دقات قلبه.. انبثق الرجال

كالجن..

بسم الله الرحمن الرحيم.. لم يعد يرى القصب والبردي تحول كله الى

فؤوس وفالات و"مجاوير" صرخ احدهم. هذا من عشيرة سعدون بن مهلهل.

تزحزح من مكمنه ليحتمي بعبيد المنتاز.. أخذوهم الى سعدون دخلوا

المضيف قال: صحيح.. هما من عشيرتي. غمز سعدون له ولعبيد: تنازلوا

عن الشياها.. لأتدبر معهم الأمر.. أخذ سعدون شياها. قال للجن: الآن

خذوهم.. صاح مأمور المركز: اربطوه "بالواسطي" قطعوه بالفأس. أهوى

احدهم بالفأس. صرخ مستغيثاً. صاحت زوجته:

-اسم الله. اسم الله.. ابو مهدي اشبيك!؟

فتح عينيه، رأى الشمس تتوسط السماء.. بلل شفتيه، وحكى لزوجته حلمه المرعب. أجابته مبتسمة:

-الطيف بالكلوب- انشا لله هانت الشدة.

* * *

بلغوا المكان المقصود بعد منتصف الليل. وعندما أشرقت الشمس رأوا مياه الهور على مبعده يسيرة، بحيث لا يمكنهم الإفلات من مطاردته لو فاضت دجلة وصادفتها رياح شرقية شديدة.

ارتقى تلاً غير بعيد عن بيته، راقب الهور واليابسة من كل الاتجاهات. شاهد أشباحا يرفعها السراب ضحى.. تخيلها كثيرة جداً، آتية من ناحية الغرب: ربما استعانت الحكومة بالشرطة الخيالة.. فالسيارات لا تقتحم مثل هذا المكان.

نشف ريقه.. أحس دبيبا بارداً في ظهره:

إذا حاصرونا في وضح النهار لا مفر من الاستسلام. أعد عبارات تليق باستقبال عريف الشرطة:

"يا بعد جبدي أنه رجال فقير.. ما عندي نية سو.. وما ادري شكو ماكو بالدنيا.. اشتريت الغنم من ابن مهلهل من زمان..". لن انسى ذلك العريف الجلف الذي رافق الجبابة.. بدا وكأنه يستمتع بجلد المرحوم.. يوم كانت في القلوب رحمة.. فما الذي يفعله عريف الشرطة في ظل حكم لا يعرف الرحمة؟ انتزعها من القلوب وصار يحرض العشيرة على شيخها ويحرض

افرادها بعضهم على بعض "يا ام حسين چنتي بواحد صرتي باثنين" كنت أحاذر على الغنم ولي فيها جزء يسير. فما الذي اصنعه -بعد حماقتي الكبرى- وشرائي كل الغنم؟! أفي مثل هذه الظروف اشتري غنم الشيوخ؟ شلت يميني التي عدت النقود! كانت خير ذخيرة تصلح لكل زمان ومكان يسهل خزنها ونقلها.. فما الذي دفعني للتفريط بها.. ولا اكبر من ذلك الا حماقة اجترار الندم على فعل مضى وانقضى ولا سبيل لإصلاحه.

ولما جن الليل تلامعت أضواء السيارات التي تجلب السمك من الهور الى المدينة.. فوقف (صالح) يتابع كل سيارة مقبلة.. وكأنها تقصده نظرا لارتفاع الأرض في مواجهة بيته.. ويظل يرقب نورها صعودا وهبوطا، شدة وخفوتا، متوتر الأعصاب واجف القلب: اذا لم يعجلوا بالمجيء قتلني الترقب على قاعدة "اسجيك ياكمون".

عرض الى الماضي والمستقبل على ضوء حاضره، وجد نفسه عاجزا عن الاستمرار في المقاومة: لايمكن إخفاء قطيع يزيد تعداده عن الألف وخمسمائة ويتعذر تحريكه بسرعة عند اللزوم.

استجمع أفكاره، قلب الأمر على وجوهه، توصل الى حل جذري، ولا حل سواه.. بيع الغنم بأسرع وقت ممكن "كص راس موتّ خبز" وينبغي ان لا تكون عملية البيع العاجل على حساب السعر.. ووفقا لمذهب القائل "يا مغربّ خربّ" اعرف أي كلام يستهوي تجار الغنم.. وأية نغمة تطريهم.. يتصور قليلو الخبرة أن اعتراف البائع بأقدامه على زواج يجعل المشتري في مركز قوة، فيفرض أسعاره. بينما العكس هو الصحيح. قالها المرحوم وجربتها بنفسي.. ورأيتهم كيف يتزاحمون على الشراء.. وأول شيء يتبادر

الى أذهانهم القول المأثور "ما يرخص الغالي الا الأعلى منه.."
شاع في البيت فرح مكتوم، حين أعلن (صالح) عزمه على بيع الغنم
وفكروا جميعاً: لابد ان ينتهي هذا العذاب ويذهب الخوف مع الغنم.
تكلف "جنيدي" مهمة الذهاب الى المدينة للاتفاق مع تجار الغنم، وأصغى
لنصائح الأب:

- كلهم أريد أعرس.. لا تكول غير شي.

هسه يجون ركض.. كلهم استخبروا ثلث مية مطفل من غنم إتزود على
الألف وخمسمية.

فخاطبه (جنيدي) في سره: وما الذي يمنعك من جعل مشروع العرس
حقيقة ملموسة؟ لابد ان احوّل الوهم الى حقيقة عندما نتخلص من الغنم
ونرحل الى البترا. واستبشرت (هدية) بهذا القرار المفاجئ وهددت نفسها
بالأمل: اذا تخلصنا من الغنم لم يعد لوجودنا مبرر في الهور. لقد
استجاب الله لادعيتي المتواصلة.. وها ان باب الخلاص يفتح.

وتسابق تجار الغنم، فعلا، للاستئثار بهذه الصفقة الفريدة، فمن بين
الف وخمسمائة يختارون ثلاثمائة.. إنها عملية لن تتكرر أبداً.. وفي آخر
الأمر اشترك ثلاثة من "المريحانية" المعروفين، ورافقوا (جنيدي) لرؤية الغنم
والاتفاق مع أبيه حول الأسعار..

وصلوا قبل مغرب الشمس، فتجولوا بين الغنم، وجدوها تسر الناظرين،
وكل نعجة تفضل أختها.. وما عليهم الا استعمال براعتهم في المساومة.

ارتدى (صالح) وجها بشوشا.. فعجب (مهيدي) لسرعة تظاهره بالمرح
ورسم الابتسامة على محياه: حتى ليصعب اكتشاف زيفها على أكثر الناس

استجاب اكبر التجار سناً، وأكثرهم شحماً ولحماً، لرغبة "صالح ابو البيئة"، فرسم صورة لما يجري في المناطق الأخرى، مجاهراً بالضيق من مسالك الحكومة ومؤيديها.. معلنا عطفه على الشيوخ وأولاد "الحمائل" الذين يتعرضون للإرهاب والإهانات على أيدي الفلاحين.. مثال ذلك:

إقامة الدعوى على الشيخ (خدام بن فليح) ووقفه جنباً الى جنب مع الفلاح المشتكى. ويسأله الحاكم عن اسمه وعمره ومهنته.. وكأنه نكرة غير معروف!؟

تشجع (صالح) فترجم ما يدور بخلده، على صورة سؤال عن حال الدنيا وكيف تجري الأمور اذا استبعد الشيوخ عن مسرح الأحداث؟ أجابه التاجر السمين، بسخرية لاذعة: الامر في غاية البساطة، سيأكل القوي الضعيف، وما تبقى من الضعيف تلتهمه المقاومة الشعبية "وتكركد" عظامه، فيما بعد، الجمعيات الفلاحية!

ابتهج (صالح) لأقوال التاجر، وسمعه أهل بيته، لأول مرة، يقهقه هكذا، لم يكتم إعجابه بذكاء التاجر. وجد نفسه في تعاطف تام معه، لدرجة فقد معها الكثير من قدرته على المساومة -لو علم ان فتح باب السياسة والحديث عنها يجعله هيناً ليناً أمام التاجر، لأقفل باب السياسة وختمه بالجهل الأسود-.

وبسبب من ذلك تم الاتفاق بسهولة على ان يكون سعر النعجة وطفلها عشرة دنانير ونصف.

وبكر التجار الى المدينة، لإحضار المبلغ، وتحققت ظنونه من كون الصفقة

مربحة للتجار، حين رجعوا عصر اليوم نفسه، وسلموه النقود كاملة.
وحين وضع لفات الدنانير بين ثوبه وجلده، خطا بذكاء خطوته الثانية،
وأعلن بمرح مفاجيء:.. يبدو ان الدنانير مغرية إلى حد يفقد الإنسان
مقاومته.. ثم تزحزحه عن إصراره وتمسكه برأيه.. ولذا أصرحك القول،
بأنني بدأت أفكر ببيع الغنم كلها.. واختيار المدينة مسكناً.. فأن ربحتم في
هذه الصفقة عودوا ومعكم المبلغ "المطل بعشرة ونص والحابل والمضرع
بسته" ولن أقبل مساومة جديدة ابدا.

وبرغم المطر الغزير الذي هطل عصر ذلك اليوم، فقد رجع التجار بعد
يومين يحملون ثمن وجبة جديدة من الغنم.. وبعد أسبوع جاؤوا لعقد صفقة
ثالثة.. ثم اعلنوا وهم يودعون:

- جرفتك زينة.. ربحتنا من شرواتنا.. وانشالله بالمرّة الجاية ناخذ بقايا
الغنم "اكراع".

* * *

تسمّر صالح في المكان الذي انطلق منه التجار، يتابع بعينين دامعتين
البقية الباقية من الغنم، وهي تسير وراءهم منكسة الرؤوس مسح دمة
تشوش عليه الصورة لن يحوها الزمن، وتمخط بطرف يشماغه ثم رفع
صوته قائلاً:

-هجم بيتي على الكلب الجاسي.. هيچ اطيچن امراضاه؟!

وكتم نشيجه، مخافة ان تسمعه النساء:

كل شيء خطر ببالي الا هذا.. اودعكن بصمت وكأن شيئاً لم يحدث؟

أي طعم للحياة بلا غنم؟ وبماذا يتمتع الإنسان بصره؟ وما هي الفرحة

وما معناها.. ان لم تكن في استقبال "بهمه" تشبه أمها؟.. ولماذا ينتظر المرء
-بفارغ الصبر- أيام الربيع؟ وما الربيع بلا غنم الا دفء يساعد الذباب
والبرغوث على التكاثر!
سمع بكاء النسوة في البيت، أصغى إلى زوجته تندب الغنم بصوت
شجي مؤثر:

هجم بيت كلبى واشكواته

شفت خلو المراح من امهاته

اويلاخ يمهيدي يا يمه..

فأجهش بالبكاء، دون تحفظ، وجلس في مكانه، حتى تخفف من غلواء
عاطفته، ثم تملك زمام نفسه، ونادى زوجته بلطف غير متكلف:

- ما اتفيد البواجي يا ام مهيدي.. ياللّه ورانا مشوار طويل.. هاي الدار
اللي اندلّوها المريحانيّه ما لازم أنبات بيها.

شرعوا يتعاونون على "معادلة" الاحمال فوق ظهور الحمير. وكشف
(صالح) لأهل بيته، في ساعة مد عاطفي، كل ما يدور بخلده: وسوف نقطع
الصلة كلية بلواء الكوت.. ونتوغل جنوبا ما وسعنا الجهد. ثمة مكان رأيت
قبل ثلاثين عاما.. كأنني أتخيله الآن.. يصعب بلوغه على الشيطان نفسه.

جمع أهل بيته في الدار الجديدة.. استهل محاضرتة بسؤال: أتعرفون ما
هو السجن؟ هل يتصور بعضكم حياة السجن؟ ثم أضاف بلهجة الخبير:
صحيح انني لم ادخل السجن.. ولكنني رأيت جدرانها الكالحة.. ورأيت
السد الترابي الضخم الذي اقامه السجناء حول الكوت.. وسمعت الكثير
من عبيد عن حياة السجن.. انها حكايات تشيب منها الولدان!! لباسهم من

الجنفاص وخبزهم اسود (صمون مثل مناصب الجدر) والضرب بالفلقة صباح مساء والشتائم زادهم اليومي! وما هو اسوأ من ذلك كله وجود الحديد في الساقين.. يمشي السجين وينام مقيداً..

كان هذا في ظل حكم الملك.. وهو حكم يفضل هذا الحكم، الذي وصفه حجي مشيري بأنه "حكم زعاطيط" وأترك لكم تصور السجن وحياته في ظل حكومة حجي مشيري.. "حكومة الزعاطيط" والسجن كما تعلمون حد ادنى لعقوبتنا.. اما اذا تشددوا فالشنق مصيرنا جميعاً.

وخلص من أسئلته وترهيبه الى قرار بأن يتقبل الجميع هذه الحياة كما هي، دون تدمير او مناقشة، حتى تنجلي الغمة عن الامة، وزيادة في الحيطة والحذر يتعين على (مهدي) و(جندي) أن يطلقا لحيتيهما.. مبالغة في التنكر.

ترأى له ان أهل بيته يوافقونه الرأي تماماً، فلا اعتراض ولا اقتراح. حينذاك طلب إليهم ان يتعاونوا على تذكر الحاجيات اللازمة لإقامة طويلة في هذا المكان المنعزل: ولنضع في الحسبان أسوأ الاحتمالات.. ونفترض الإقامة هنا ثلاث سنوات.. وتذكروا ما هي لوازم البيت لمثل هذه المدة. ولا يلومن احدا الا نفسه اذا نسيتم حاجة ما، فلن اسمح بعد هذه السفارة لأحد ان يغادر المكان مطلقاً..

تكلمت زوجته فعرضت أهم الأشياء في نظرها.

- قبل كل شيء اشتروالنا هايشتين حلّابات ترا احنا على اللبن مثل شاروب التتن ما نكدر انفارجه..

ثم بدأ الآخرون يتذكرون الضروريات.. فقال (ابو البينة) في سره إنها

حاجيات تكفي لفتح دكانين في قرية.. ولا يصلح لشرائها سوى.. ولكن كيف اترك البيت، وحفرة النقود معلومة للجميع.. ولم أتدبر أمرها بعد؟ تبادلوا الرأي حول أهم المشتريات: الحنطة والشلب والشعير والبقرات يمكن الحصول عليها من القرى. أما المشتريات من المدينة فهي السكر والشاي والتبغ والنفط والتمر والثياب.

* * *

أيقظ ولديه عند الفجر.. كرر وصايا الليل ثانية: لا تدخلوا وسط المدينة.. ابتاعوا حاجياتكم من اطرف دكان.. ودفعا للشكوك قولوا لصاحب الدكان: اعترزنا فتح حانوت في القرية.. ولا ينزعن أحد لثامه.. لا تقحما نفسيكما ولا تجادلا في شأن عارض لايهمكما أمره. وحين ابتعد الوالدان، يسوقان قطع الحمير، تبعهما راكضا وصاح: -كلشان.. كلشان.. اشتروا ثلث كلشان!

بعد ان شرب شاي الفطور، مسح شاربيه ولحيته فتذكر الصبح وقال: -هاه.. يا حيف واللّه.. نسيت شيء مهم، نسيت الوسمه صبغ اللحية ايبدل شوفة ابن آدم!

* * *

تسلم الحاجيات من ولديه، فلم يكتف إعجابه بفضة (جنيدي) لكنه أثر توزيع المديح بين الاثنين.. ونبه الجميع الى انه قرر الاحتفاظ بالحاجيات عنده، وصار منذ الان مدير "تومين" يوزع السكر والشاي والتبغ والنفط والتمر بمقادير محددة.. ثم قال لولديه:

-بعد وراكم سفرة باجر.. تشترون من الكرايا ثلث تغارات حنطة

وتغارين شعير.. وثلت هوايش حلابات وتفگه زينه.. وفشگ اهواي
للتفگات..

* * *

ضج المكان بنهيق الحمير، وارتفعت سحابة من غبار، حجبت قرص
الشمس الغارية، بدت الحمير وكأنها لا تعرف ما هو التعب وما معنى
الهدوء.

فحاور صالح نفسه: اعرف أسباب هذا.. انه الربيع الخارق للعادة.. مرة
واحدة شهدت مثله.. كان ذلك قبل زواجي- ولكن الغنم هي مبرر وجود
الربيع.. وبدونها لا يحسه المرء الا حين تزعجه الحمير بضجيجها!..
اقتحمت عليه المكان حمارة مطاردة، لتلوذ بحماه، من مجموعة حمير استبد
بها هياج جنسي عارم.. أدرك انه عاجز عن حمايتها: لو وقفت في طريق
الحمير المجنونة لوطأتني بالحوافر وربما مزقتني بأسنانها!

دفع الحمارة خارج الربعة وأغلق الباب بحصيرته: اسرار لا يعرفها الا
الله!! اتخلص من الغنم.. فتجود السماء بمطر غزير وتسخو الارض
بكنوزها.. وينبت العشب فوق رؤوس التلال.. ولكنه يصبح من نصيب
الحمير! ان من بين دلالات هذا عقوبة وتعذيب لي.. ولا يستعصي علي
ادراك السبب.. فلقد وعدته بالصلاة ولم اصل ونذرت ولم اف بالنذور..
ليتني تعلمت الصلاة وهي خير ما يملأ الفراغ في هذا المكان الموحش..

دخلت عليه زوجته في زيارة غير متوقعة، فانقطع حبل تفكيره، وتطلع في
وجهها مستفهماً. أفضت إليه بما عندها.. فأنفض (صالح) ولكنه أثر
محادثتها ببرود: الم تبق عندك فضلة عقل فتميزين بين التمرة والجمرة!؟

ألم يكن مفهوماً قولي ان الحكومة تطاردنا.. ولو اهدت الى مكاننا لوضعتنا في السجن او القبور؟! لقد بلغت من العمر ضعف عمره ولم أطلب أهلي بالزواج.. ثم لم هذا الاهتمام بزواج (هدية)؟ ما الذي يحدث لها اذا تأخرت سنة او سنتين هل يأكلها "البزون"؟ هذه أفكار الخاصة ام هي أفكار "جنيدي" و"هدية"؟ من يدري فلربما استغاثت.. وطلبت الزواج بعظم لسانها؟

كل شيء محتمل في هذا الزمان.. وكل شيء أضحى يسير على رأسه. اغتنمت فرصة انشغاله بليفة التبغ، فغادرته خائبة، وانكبت على "مجرشتها" بصمت.

جمعهم بعد العشاء. طلب من "جنيدي" إعادة ما قاله (الحجي) صاحب الدكان، يوم ابتاعوا منه الحاجيات..

تساءل "جنيدي" عن سبب هذا الطلب وقد سمعوا الحكاية أكثر من مرة. فقال الأب بلهجة حازمة:

- عندي بيها مگصد.. سولفها مثل ما هيّة..

انطلق (جنيدي) يرويها كالسابق.. وسألني الحجي:

ألم تسمعوا الإذاعة في يوم أول أيار؟ ومع انه لم يصدق دعواي بأننا لانقتني جهاز راديو فقد واصل كلامه وحلف بالبیت الذي حجه. انه سمع الهاتف يصم الأذان "الحزب الشيوعي بالحكم مطلب عظيمي".

سألته وماذا يعني هذا؟ فأخرج رأسه من باب دكانه وتلفت يمنة ويسرة ثم همس: هذا يعني استيلاء الشيوعيين على السلطة.. وسوف يصادرون كل شيء.. ليتساوى الناس في الفقر.. حتى دكاني هذا ودكانكم المرتقب

وكل الدكاكين تصادرها الحكومة الشيوعية..

وأقلت سؤال من فم (مهيدي) عن مصير الغنم، فأجابه الحجى: تؤخذ بلا عوض.. لتذبح في مطابخ المقاومة الشعبية والشبيبة الديمقراطية. ودفعتني الاطمئنان، وتوسمّ الخير في الحجى، للاستفسار عن الشيوخ.. فأبتسم بمرارة وأجاب: لقد قتلوهم جميعاً داخل السجون.. ونهبوا أثاث بيوتهم.. وسلبوا نساءهم حتى الثياب.

أشار (صالح) بيده، مكتفياً بهذا القدر من الحكاية.. تفحص الوجوه توطئة للكلام.. ثم تساءل بجرس يحمل الوعيد والتهديد: اذا كان الحاج المسكين القابع في دكانه، يترقب الخطر في اية لحظة، وليس له من ذنب سوى كونه يملك دكاناً، فما هو مصيرنا وقد أخفينا غنم الشيوخ ثم بعناها!

رفع صوته مهدداً: اسمعوا.. يتوجب علينا حمد الله صباح مساء، لأننا أحياء نتنشق الهواء.. ومن يلقي نفسه وسط النار المشتعلة "عوينته الحركته ايده" لن يجد من يترحم عليه أبداً..

فليكنتم كل رغباته الى حين، ويدعوا الله بتقريب ساعة الخلاص.

لا تشعلوا النار في هذا البيت، لمجرد نزوة مجنونة تراود أحدكم.. وتطل برأسها في وقت غير مناسب. اسمعوا.. كل شيء يحويه النسيان -مهما بلغت قسوته- سوف ننسى هذه الأيام العصيبة، وتمحوها من الأذهان ساعة فرح واحدة.. هل فهمتم قصدي؟

* * *

صار رعي البقرات والحمير مناوية بين (مهيدي) و(جنيدي) وأحيانا

زوجة مهيدي، يود احدهم لو طال النهار ويبقى بعيدا عن البيت الذي حوله
(صالح) الى جحيم لا يطاق..

ولا يدري أحد لماذا حرم "هدية" من متعة رعي الحمير والبقرات، وفرض
عليها الإقامة جوار أمها. حتى غدت تحلم بأيام الرعي، بعيدا عن البيت
تناجي حبيبها على البعد، وتردد بعض الأغانى الشجية.
أدركت (هدية) تحت وطأة العذاب: ان الشيء الوحيد الذي لا يخترن هو
السعادة. وأما استحضار الحبيب على وسادة النوم، وطول التفكير
بلحظات حب عارم، فليس سوى مجلبة للتوتر العصبي الدائم ونحول
الجسم.

* * *

استبدت الحمى ب(صالح ابو البينة) فراح يهذي على نحو موصول. فكر
(جنيدى) بالثروة، وقد استوثق من ان الأب يخادعهم بوضع النقود جهارا
في حفرة وسط الربعة- عرفه هكذا مخاتلا، كثير الشكوك لا يثق بأحد
مطلقاً. مرة تعمد إيهامهم وتسلسل في ظلمة الليل، وهو عليم بمراقبتهم،
فحفر حفرة في الكوسر.. ولم يضع شيئاً في تلك الحفرة: تعود اخفاء
النقود بعيدا عن البيت.. ما في ذلك شك.. ولو مات فجأة.. انه.. لا.. تضع
الثروة حتما.. يتعين عليّ فحص الأماكن البعيدة، التي كان يكثر الجلوس
عندها قبل ان يقعه المرض. مرة وجدت الإبريق كما أخذه لم يرق منه
قطرة ماء واحدة وهذا يعني.. تفقده لمواضع النقود المخبأة.
ابتعد عن البيت.. استل خنجره وراح يطعن الأرض في أماكن متقاربة..
وكان (مهيدي) قد استجاب لتحذيرات زوجته- بضرورة مراقبة (جنيدى)

مذ اعتلت صحة الاب واشتد عليه المرض -ولكن النعاس غلبه، فهوم الى جوارها. مد ذراعه لعامل التلقيح ضد الجدري -ذي المعطف الأبيض- والسكين الصغيرة تلمع تحت ضوء الشمس.. شرطي الى جانبه وآخر يحرس الخيمة المنصوبة عند مدخل المدينة.. ارتجف خوفا.. ضحك الافندي -الأبيض- وداعبه قائلاً:

"هاه.. لا اتصيح يا يمه مثل الجهال!"

تكلف الشجاعة.. كشف عن ذراعه. لوي الشرطي كفه.. أحس الماء في وجهه.. كانت زوجته تشد شعر لحيته وتهمس حانقة:

-عود انته زلهه؟! نايم تشخر مثل الزعاطيط ومدري شصار ما صار..!

اعترف لها بتقصيره.. نهض من فراشه. غسل وجهه، وجلس في باب خيمته يراقب اخاه: لو استوثقت من حسن نواياك يا (جنيدي) وانك لن تصير مطية لإبليس -إذا اختار الله الشايب الى جواره- اذن لرحلت ونزلت البترا مكتفياً بقطعة ارض مع الفلاحين وتلت الميراث، وحتى ربهه يكفيني.. ولكن من يضمن لي الربع؟ لو أعطيتني عهدا على الربع، لغادرت الجحيم الذي نحن فيه منذ الغد..ومما زاد الطين بلة شجارها المتواصل لأتفه الأسباب. تحول الشاي من وجبة يومية الى ثلاثة أيام في الأسبوع.. وبعد ستة اشهر جعله مرة في الأسبوع.. وفي كل مرة تبدأ شجارها معي -وكأنني المسؤول عن هذا! "منعولة الوالدين" ولا تكف لحظة عن إظهار اشمئزاتها من لحيتي: "كلشي رضيعنا بيه.. هاي اللحية شنهي انوب؟! صابون ماكو.. وماي البير اگليل.. وصايره لحيتك مثل زفرة الكوسج!"

طال ترقبه. لم ير أخاه في كوسر الربعة او "رقة" البيت. زحف الى

الكوسر. أنصت إلى هذيان الأب. رأى شبحاً: انه (جنيدى). وعلى هذا البعد؟ أعوذ بك يا ربي.. انه يجلس على نحو مريب.. كأنه يحفر في الأرض.. هو الآخر لم يصدق مزاعم أبيه: ان الثروة في الحفرة التي ينام فوقها. أياكون على بينة من مخبئها؟ يا الهى ما الذى أفعل لو حملها وهرب فى ظلمة الليل؟ الهى بحق الأنبياء والأولياء اجعل فى رأسه قدراً كافياً من العقل.. لا تدعه يفعلها.. لن اسكت ولن اسمح له بالفرار..

تحسس مسدسه: يا الهى لا تعرضنى لهذا الامتحان الرهيب.. لقد تحملت العذاب وصبرت صبر أيوب من اجل حصتى فى هذه الثروة.. ولن اسمح له بالاستحواذ عليها.. انه.. كأنه يعبئ النقود.. ربما.. كأنه.. احسبه..

يا الهى سأرتكب حماقة.. ادركنا يا الهى..

زحف نحوه.. ناداه بصوت خفيض:

- جنيدى.. شسوي؟

- ها.. سمعت صفرة. كلت هذوله حرامية تايهين عن ربهم.. وزحفت..

- وأنه هم سمعت الصفرة..

(عن أي صفير تحدث يا خبيث! لابد ان الذئبة قد وضعت السرج على ظهرك، مرة أخرى، لتطلقك فى ميدان العبث.. صفيرا.. يقول؟! سمع صفيرا!!!)

* * *

أقلت من قبضة عزرائيل بأعجوبة. كما تقول زوجة (مهيدى)، فى حوار مع نفسها: "طلع المنعول والدين من جعب عزرايين حاد اسنونه على الدنيا".

صار مزاجه في غاية السوء. حول البيت الى زنزانة بلا نوافذ، أثار ضجة ذات يوم، واستعمل كل ما في قاموسه من سباب، لأنه رأى (مهيدي) يشعل سيكارتة من الزناد والنفط على وشك النفاد، وقد هجروا ضوء الفانوس منذ ستة اشهر. وفسر تصرف (مهيدي) على انه جزء من مؤامرة يشترك فيها الجميع، للقضاء على أرادته وحمله على الرحيل.. وأنهم يسلكون الى غايتهم كل السبل، ومن بينها استنفاد النفط، فراح يصرخ: حتى لو افتقدتم النار، لن ارحل من مكاني هذا.. أرغمكم على أكل الحبوب مثل البهائم.. لن أكون مثل "نطارة العگروك" يحرس نفسه طول الليل.. ثم يخدعه الفجر الكاذب.. فيتطامن وينام، ليجد نفسه بين أنياب الثعبان. لقد تحملت من العذاب أكثره.. وصارعت الأمواج العاتية ولن أتخاذل واطركها تغرق وبيني وبين الشاطئ بعض أذرع.. سوف أطبق عليكم مبدأ البحارة، الذي يصفه السيد علي، اللّهُ يرحمه، الميت يرمى للسمك والأحياء يسيرون في سفينتهم بلا تردد. فمن وجد نفسه عاجزاً عن متابعة الرحلة فليذهب الى الجحيم.. محروما من ثروتي.. ثم أمر ولديه بتسليم الزنادين: أشعلوا سكايركم من الموقد..وقد يجيء ذلك اليوم الذي امنعكم فيه من التدخين.. لا ترغموني على اللجوء الى القسوة..

وحاور نفسه بعد أن هدأت ثورته: لقد تصرفت بحكمة ودهاء.. لو تهاونت معهم في امر لأجهزوا على البقية الباقية من ارادتي.. وحملوني على الرحيل لاواجه المصير المجهول.. بدأت افقد شيئاً من عزمي على البقاء يوماً بعد يوم.. ويشتد حنيني الى الناس والغنم والماء العذب.. ولا بد ان حنينهم الى تلك الحياة لا يقاوم.. لولا موقفني الصلب لترجم كل واحد منهم

رغباته الى اسباب مقنعة على الرحيل.. وقد تنهار مقاومتي. ان بقية عزمي تكفي لمواصلة الرحلة.. لكنني ربما صُغت.. وقد لا اصمد اذا هجم الآخرون.. فالشدة معهم.. ومع نفسي كذلك.

* * *

تحتل المرتبة الثانية: من حيث التسلط والتحكم بأهل البيت، طفلة مهيدى، فقد بالغوا في تدليلها على نحو غير معهود.. لقد كانت واحتهم وسط صحراء العزلة يهرعون اليها من رتبة الحياة وقسوتها، لا يتخذ الضحك طريقه الى شفاههم وقلوبهم الا بدعابة منها او سؤال عابث كهذا: اذا كان فقدان النفط هو السبب في هجر الفانوس، فكم يعاني الله من مشقة توفير النفط لفوانيسه وتشير بإصبعها الى النجوم.

تسألهم عن الشيخ الذي يتردد اسمه، مقرونا بالرهبة: من يكون هذا المخلوق الذي يخافه حتى جدها (صالح)؟ وهو المخيف المرعب.. لا بد انه مثل الخنزير الذي اقتحم الصيرة وأرعب جدها.. ثم تسألهم كيف صعد الله الى السماء؟ فلا يهتدي احد الى الجواب ولا يجروا على زجرها.. وتوغل في أسئلتها، فتسمع أجوبة من ذلك النوع الذي يثير الفضول ويدفع الى مزيد من الأسئلة: ما هي العلاقة بين الله وبين سيد سراب والعباس ابو فاضل والسيد ابو شرارة، وتلك هي الأسماء التي تردد عبر أيمانهم.. او في أحاديث الأيام الخوالي.

أثار فضولها هرج اهل البيت، وهم يتطلعون بعد مغرب الشمس الى نيران منتشرة. ألحت على أمها، فصعدت متنها وراحت تراقب النيران معهم - لم تفهم سببا لكل هذا الاهتمام، ولم تدرك معنى لقول جدها

(صالح ابو البينة):

-هذا فريج غنّامه، هم امتدت رجل ابن آدم لهذا المجان. چا بعد وين انولي؟!

اقترح الاب زهاب جنيدي صبيحة غد ليتأكد بنفسه من هؤلاء الجيران.. يسألهم عن أخبار الدنيا.. ثم استدرک، وسحب اقتراحه:
-لا. لا. خلاها عگب باچر..

استيقظت مخاوفه مجددا، وشرع بمراجعة خطة الطوارئ: أضع النقود في الخرج.. احکم ربطه على ظهر الفرس.. انطلق بها جنوبا.. ولكن هل اترك الجميع للسجن او الإعدام؟ الأفضل والأسلم.. وما فيه راحة الضمير.. تسليم الخرج لـ(جنيدي).. واجلس في مكاني اقاتل.. ولكنه طموح وقد يحرم المسكين (مهيدي) من حصته في الثروة. سوف أعطيه للثنتين.. ولكن يا ابن الغبرا هل أنت حمار مهمتك حمل الأثقال؟ هكذا ببساطة اسلم الخرج؟! لا. لن أعطيه لأحد ما دمت على قيد الحياة.. انه قطرات دمي وعرق جيبيني.. وكد يميني.. جمعته حقاً وباطلا..لن أسلمه لأحد وفي جسمي عرق يبيض.

راقبوا مصدر النيران في اليوم الثاني، خيل إليهم أنها تكاثرت، بعد ان اشتد الظلام قرروا أنها نيران العشاء.. وان بيوت "الغنّامة" تتجاور على هذا النحو.

سمعت زوجة (صالح)، قبيل الفجر، صياح الديكة، فخفق فؤادها.. حيننا الى الأيام الخوالي.. عهد الصبا والعشق: وتذكرت انها صاغت الحجل من ثمن الديوك، ويوم لبسته لأول مرة، اغتتم الفرصة ومد يده إعجابا.. من ثم

مرر أصابعه حتى الركبتين وما فوقهما، قليلا، وعاد يلمس الحجل ويقول
"منه للعرس انشالله": لكن دولاب الفلك دار فجأة.. سقط أخوه قتيلا على
يد عبيد المنتاز وزفت له صالحة بنت احمد فصلية.. وشاء احمد ابو البينة
ان يخطبني لولده.. ثم وجدت نفسي بين يدي صالح "لا علم ولا خبر" لم
اره من قبل ولم يرني..

اعتزمت التوجه الى الله بدعاء، أرادت له ان يكون خالصا، لا تشويه شائبة
ولا يحول بينه وبين السماء حائل، فغادرت الفراش مخافة ان يتعثر الدعاء
بنسيج الخيمة.. فلا تصل كلماتها الى السماء، على ما هي عليه من حرارة
وصدق.

كشفت جبهتها، وأزاحت الفوطة عن صدرها قالت بخشوع:

-يا لاهي- يا من لا تلهيك اللواهي.. بجاه كلمن اله جاه عندك. تخلصنا
من هالسجن الاكثر... وتحط العگل والفكر الرحماني براس هالرجال..
وتسوي لعبادك چاره.

الفصل الخامس

قفز (صالح) من ربعته مذعوراً. تبعته زوجته ثم (هدية) واخيرا زوجة مهديي تحمل طفلتها.

وقفوا جميعا في رفة البيت، يتناولون على أطراف اصابعهم، ينظرون الى حيث اشار (جنيدي): ثمة رجلان يقصدان البيت، جاءا من "فريج" الغنامة، وعلن جنيدي بعد قليل:

واحد سيد عمامته سودا.. وواحد مومن عمامته بيضا..

تمتم (صالح) بقلق:

يالله دخيلك.. سيد ومومن؟! شنهي الطرغاعة؟

اوضح (جنيدي) بعد تدقيق النظر:

واحد منهم سيد حسن الكربلائي..

تحول الصوت في اذن (صالح) من نذير الى بشير.

امر ولده ان يستعجل في استقبالهما:

ولك اركض تلگاهم.. لا تگطعمهم الجلاب.. ثم تبع ولده مهرولا -وتولت

النساء مهمة صد الكلاب- التي بدت متوحشة، كأنها نسيت صورة

الانسان وانكرت هيئته.

اوجس السيد خيفة. اربعه منظر الرجلين، يتسابقان نحوهما.. والنساء

تطارد الكلاب.. ورجل ثالث يقصد البيت من الناحية الاخرى عدوا.. التفت

السيد لصاحبه، (الشيخ محمد رضا) وقال:

-اولاد المدس راح يسوون هرجة بالجذب ويختلقون عركة بيناتهم حتى

يطردونا!

-تمام.. فد مرة سووها ويانا بالرميثة..

اولاد النعل طردونا غير طردة! هم بها الطريقة!

صاح (ابو البينة) من بعيد:

مولاي.. من السما من الكاع؟ الف هلا يا مولاي..

انكب على قدم السيد بعد تقبيل يديه.. انتحب باكياً من فرط تأثر..

فقال الشيخ محمد رضا -بلغة الموامنة*:

(سوش خيدي. سداس ميدي..)(١)

اجابه السيد:

(سنده عيدي.. سوش خيدي.. سلوس فيدي..)(٢)

لهوج السيد بطريقة خطابية:

-ياسبحان الله.. يا سبحان الله.. هاي اشلون صدفة.. اشلون صدفة
طيبة يا صالح.. والله مشتاق لك.. واجينا على وجوهنا ما نعرف انتة
بهاالكان.. يا سبحان الله.. اشلون صدفة.. والله مشتاق لك.

استبد الذعر بالطفلة، حين اقترب السيد وصاحبه من البيت، لم يفتن
اليها احد.. ولم يسمعوا استغاثتها، بفعل الضجة التي احدثتها الكلاب.
ولما استقر السيد وصاحبه في الربعة.. سمعت الام صراخ الطفلة
فأدركتها.. وكانت تتعجل الرجوع الى البيت، لتسمع شيئاً من اخبار الدنيا،
وقد بدأ السيد يتحدث منذ لحظة دخوله. قالت الام تظمن صغيرتها:

*لست في معرض الحديث عن هذه (اللغة!) ونشأتها.. لكنني على "اسرارها!"
وتتلخص برفع الحرف الاول وجعله في آخر اللفظ مضافاً اليه: "ي" و"د" و"ي" ويحل
محل الحرف الاول دائماً حرف "س".

(١)خوش مداس..!

(٢)عنده خوش فلوس.

- يمه لا اتخافين.. هذا السيد، داخلين على جده..

- السيد؟

- ايه يبعد امچ وعمرها..

- وهذاك ابو بيذا هم سيد؟

- لا يمه ذاك شيخ.. شيخ..

- الشيخ؟

- أي يبعد امچ

- اليخاف منه يدي؟

- لا يمه.. هذا شيخ اللّه.. وذاك شيخ الكاع..

- هذا شيخ السما؟

- ايه..

- هوه اللّه؟

- استخفر اللّه.. لا يمه.. اموديهم اللّه..

- ليش اموديهم؟

حملتها بين ذراعيها. قبلتها مرتين. طلبت منها السكوت لبعض الوقت،

لتسمع ما يقوله السيد، وفيما بعد تجيب على اسئلتها جميعا..

اتخذت مكانا ملاصقا للستار المهلهل، لترى السيد وتسمع حديثه

العذب، لا تعكره كلمة اعتراض ولا لفتة إعراض.. وينعطف بالحديث، ليؤكد

اشواقه لصالح ابو البينة:

- كل ماجي للبترا.. اسأل عنك زائر عبيد..

- زائر؟ زائر عبيد.. يا عبيد هذا؟

فيضحك السيد بمرح ويجيب:

- عبيد المنتاز.. صاير زاير.. راح للرضا(عليه السلام).. زار واندعى لك. ادركته الرحمه.. طلع جوهره.. شريف.. مؤمن.. عبد صالح..

تحلب ريق جنيدي.. خاطب السيد في سره: لا تقف بحديثك عند هذا الحد.. استمر.. قل أي شيء تعرفه عن عبيد واهل بيته. وماذا عن نجمه؟ ويواصل السيد ثناءه على عبيد المنتاز(زاير عبيد) انه اهل لهذا اللقب.. وهو واحد من القلة الاخيار الذين بقوا على دينهم في مقاطعة البترا.. نمضى ايامنا عنده، معززين مكرميين. واذكر بالخير كذلك زاير محيسن"ابوك يا عليوي" فقد استيقظ ضميره، بعد طول سبات طويل، وهجر التعامل بالريا، وصار يزكي محصوله كل عام..

تململت (هديه) في مكانها. تحاشت نظرات زوجة مهيدي. استعطفت السيد في ذات نفسها: مولاي لا تقطع الحديث عنه- يزكي ام يسرق- لا فرق عندي. هل تعرف شيئاً ما عن ولده عليوي؟

أي نعم "يا ابو مهيدي" صار الاخيار يعدون على اصابع اليد الواحدة.. انت لا تدري ماذا حل بالناس، خلال العامين المنصرمين..

مولاي بخلگك شكر. الشيوخ شنهو وضعهم؟

مشط السيد لحيته بأصابعه قبل ان يجيب: لقد اجتازو الايام العصبية، وخرجوا من المحنة سالمين.. وان تكن الاراضي، حتى الان، بيد الاصلاح الزراعي، ولكن رجوع الشيخ فالح من بيروت ومعاودته الاتصال بالمسؤولين رفعت عزائم انصار الشيوخ.. وقد توجه ضاري- اللّٰه يحفظه- بعد رفع القيود عن ارضدتهم في البنوك، الى اعمال التجارة والمقاولات.. ليس هذا

مقصد صالح من سؤاله. كان يحوم حول قضيته. ود لو يسمع شيئا عن غم الشيوخ. اتخذ سبيلا اخر لبلوغ غايته فصاغ السؤال على النحو التالي:

- مولاي.. وخادمك داود، ابن اخوي، شنهي اخباره؟ ليست اخباره بمعزل عن اخبار الشيوخ واحوالهم.

هكذا اجابه السيد الكربلائي: اتهموه بأخفاء اسلحة الشيوخ.

اوقف ثلاثة اشهر مع الشيخ ضاري وهلال الصلال.. وقد بذلت جهدي وسعيت لدى السيد- الله يحفظه- واستحصلت منه رسالة الى الحاكم العسكري العام، فأطلق سراحهم.

لا فائدة من اللف والدوران. هكذا قرر صالح. وطرح سؤاله بلا رتوش:

- مولاي.. سمعت كالو.. حابسين داود على مود غم الشيوخ رايدونها منه؟

- ماكو هيچ شي..

تنحج الشيخ محمد رضا وقال لصاحبه:

- (سوفه خيدي)(٣).

فأستدرك السيد الكربلائي واطاف: صحيح لو ان الامور دامت للشيوعيين، وظلت المقاومة الشعبية على حالها، لبلغت حد الاستيلاء على الغنم، وحتى على النساء!

(٣)خوفه

امسك (صالح) طرف هذه الوشيعة المعقدة، وسأل السيد عن معنى قوله "لو دامت للشيوعين"... وابن هم الان؟ أليس عبد الكريم قاسم هو الحاكم اليوم؟

ثانية تنحج الشيخ رضا ونبه صاحبه:

(ستلك كيدي. سوفه خيدي)(٤).

نعم.. نعم، لكن بمساعي الطيبين المخلصين، وسعيهم المتواصل، تراجع بعد الكريم قاسم عن موقفه. هكذا اجاب السيد. بيد ان (ابو البيه) لا يكتفي بالعموميات.. ويطلب دليلا على هذا التراجع المزعوم. فيضع السيد الكريلائي بين يدي سائله جملة ادلة قاطعة:

خذ مثلا الجمعيات الفلاحية.. انتزعها عبد الكريم قاسم من ايدي الشيوعيين، وسلمها للأخيار الطيبين، فصار (زاير عبيد) رئيسا لجمعية العلوّة ومويلحه، بدلا من (ملا نعمه) و صار داود سكرتيرا للجمعية بدلا من "فرحان بن سويلم" واصبح "السيد جاسم ابو شرارة" مسؤول الجمعيات في القضاء.. و(ملا علي) كاتب الشيوخ سكرتير اتحاد الجمعيات في اللواء. وقد ابعدت السلطات ملا نعمه الى حلبجه..

- حلبجه

- أي نعم حلبجه..

- مولاي.. حلبجه غير الكلبجه؟

(٤) كُتلك خوفه

ضحك السيد. وعقب الشيخ رضا قائلاً:

- (سوش خيدي.. سداس ميدي!) (٥).

ثم نصح صاحبه:

(ساليدي. سخليه تيدي. سبلع بيدي. سيجه ريدي. سوفه خيدي. سوفه

خيدي..) (٦).

فأضاف السيد الكريلائي لقوله: لكن هذه المكاسب كلها عرضة للضياع،

إذا لم تتظافر جهود المخلصين.. وترتفع رايات الجهاد في سبيل الله

ونصرة الحق..

لكلمة الجهاد في ذهن (صالح) معنى لا يتغير، ولهذا يستوضح

متسائلاً: - مولاي.. الجهاد الاولي انه ما لحكت عليه.. يسولف عليه

خادمك المرحوم.. ايگول الجهاد ضد الانگريز.. اخذونا للشعييه وعاركتنا وي

الترك ضد الانگريز.. هسه هم اكو انگريز؟

انه ليس بالضرورة ضد الانگليز.. فقد يكون الى جانبهم اذا اقتضت

مصلحة الدين. هكذا اجابه الشيخ محمد رضا.. ثم اكمل السيد قول

صاحبه: يصبح الجهاد واجباً حيثما تعرض الدين للخطر.. والدين في

ايامنا هذه الايام عرضة لخطر شديد.

بدا كلامه غير محدد المعاني، فطلب (صالح ابو البينه) مزيداً من

الايضاحات:

- مولاي.. اشلون؟ شنهو الخطر؟

(٥) خوش مداس..!

(٦) خوفه. خوفه

خذ مثلاً، مقاطعة البترا.. لقد عبث الشيوعيين بأفكار اهلهما. وشتتوا اذهانهم.. هل تصدق ان قلت لك ان شخصاً مثل "حمود" ..حمود بن....
- ايه مولاي.. حمود بن شنين.

نعم هو حمود بن شنين، يقاطعني وسط الديوان بكلمة قذرة- كنت اتحدث للفلاحين في ديوانية زاير عبيد.. انصحهم بما يمليه عليّ الواجب الديني.. قلت لهم اذهبوا الى بيت مهلهل. استأذنوهم استزراع الارض والصلاة فوقها، والا فانكم تاكلون غلتها حراماً، وكأنها سرقة.. وصلاتكم عليها غير مقبولة عند الله، لان الاصلاح الزراعي اغتصب منهم الارض بالقوة.. وما ينبغي لكم مخالفة الشريعة الاسلامية.. وما دام التخلي عن الارض لاصحابها الشرعيين ضرباً من المستحيل، في الوقت الحاضر فعلى الاقل استوهبوهم.. خذوا رخصة..

هل في قولي هذا ضرر لاحد؟

- حشاك مولاي.. حشاك..

ومع ذلك "يا ابو مهدي" يرفع (حمود بن شنين) رأسه وسط الديوان ويقاطعني بقوله "مولاي انتة جذاب!" ويأتي بالدليل على كذبي.. كذبي انا؟ تصور! فيقول: لو كنت مخلصاً لدعوتك، لما اقمتم الماتم الحسينية في بيوت الفلاحين وتقاضيت اجرهم من غلة الارض "المغصوبة" وتضرب الثريد صباح مساء في بيوت الفلاحين، وانت عليم بأنه من انتاج تلك الارض المغصوبة.

تصور.. هكذا بلغ الحال.. يعيرني حمود بن شنين بأكل الثريد.. نعم.
الثريد!!!

ضحكت الطفلة "حَبَابَة" لان اسم الثريد يقترب في ذهنها بأشياء تبدو مضحكة لو عومل بها السيد. للثريد عندها صورة محددة: قليل من الحليب يفتتون فيه الخبز.. تأكل، ثم تشرب بقايا الحليب، ولطالما انسكب الحليب على ثوبها وجلدها، فتقتادها الام الى البئر.. تنزع ثوبها وتصب عليها دلو ماء..

وهكذا تخيلت السيد حسن الكربلائي، بقامته المديدة وكرشه الضخم، عارياً قرب البئر يسكبون على رأسه دلو ماء -فقالت لامها:

-سيد سلاب عليان يغسلونه بماي البيل؟!

همس الشيخ محمد رضا للسيد:

(ساح ريدي. سحط ايدي. سلاو كيدي. سراسه بيدي)(٧).

التفت جنيدي الى اخيه وسأله (بلغه الحرامية)*:

(ما معرشاف. محجشيات. مصوشيحج. المسوشيد؟)(٨).

اجابه مهيدي:

(٧) راح احط كلاو براسه.

(٨) ما عرفت حجى صاحب السيد؟

(٩) لغة الحرامية لا يمكن ضبطها بقاعدتها، وان تكن في الاعمال الثلاثية، خصوصاً، محكومة بحروف زائدة متساوية.. ومع ذلك لا يصح القول ان لها قاعدة، فطالما استبدلوا مواقع الحروف، او تحريكها، على نحو يعقد الامور على متتبع المتخاطبين وفقاً للقواعد. ولكن هناك الفاظاً يمكن رصدها بدقة مثال لفظ "عرف" فانه تتحول الى معرشاف.. و"وصل" الى موصشال. و"كتب" الى مكتشاب.. ولكن الامر يلتبس على المستمع و"تلاص" اللغة اذا قال قائلهم "معوجشيب بمنفشيسته" أي انه "متعجب بنفسه" و"ما مريشاد محجشي المصشدشيك.. التي هي "ما يريد حجى الصدك" والعجيب في الامر سرعة تخاطبهم وتفاهمهم بها لدرجة لا يستطيع متابعتهم مع لني اجيد التخاطب بهذه "اللغة" وفقاً للقواعد التي تعلمتها على ايدي "الحرامية"!

(مهوشيدا. ما محچشي. محرشيميه. مهوشيدا. محچيشي. معلشام)(٩)

فقرر جنيدي بصوت خفيض:

(مگلشيبي. ملوشيسبني. من محچشياته)(١٠).

مهدّ الشيخ رضا لكلامه بضحكة ثم قال:

-يا سبحان الله.. السيد گبل يومين تذكر.. لانه شاف لك حلم عجيب..

تهلل وجه (صالح) فرحاً وتساءل بلهفة:

-مولاي.. صدگ؟ بعد چيدي صدگ شفت لي طيف؟

نعم لقد رأيت التقي الصالح (صالح بن احميد) المقبول عند ربه، الموعود بالجنة، الموفور الرزق، رأيت على نحو يسر الصديق ويغض العدا..

فسرّ (جنيدي) طرفاً من الحلم، على انه يعني زواجه -من (نجمة بنت عبيد)- والا فما معنى وجود خيمة خضراء تتوسط المراح يجلس فيها "صالح" و"عبيد"؟ لابد أنها (حوفة) العرس..

استثار الحلم عواطف (ابو البينة)، فانتحب باكياً. قبل يد السيد ثم يد الشيخ. ومثلما ادخلا الفرحة الى قلبه عجل بما يدخل الفرحة لقلبيهما، فأعلن عزمه على دفع "عادة" السيد السنوية مضاعفة.. ومثل ذلك اكراما للشيخ محمد رضا.

وتستبد به اريحية غير معهودة، فيأمر ولديه بذبح العجل السمين هرعت النساء مستبشرات بالحدث العظيم، زاهدات في سماع بقية مواعظ السيد وصاحبه.

(٩) هذا موش حجي حرامية- هذا حجي علام..

(١٠) گلبي لاسيني من چچياته.

وبسرعة لا تدانيها سرعة الذئب الجائعة، حولن العجل الى كومة لحم..
ودس كل واحد من أفراد العائلة شريحة لحم وسط النار المشتعلة. فامتلا
الجو برائحة الشواء. بلع صالح ريقه.. وغالب لعابه بصعوبة.. واخيرا غادر
الربعة بلا استئذان، فانقض على النار المشتعلة تحت القدر والتقط شريحة
لحم، لم تنضج بعد. اكلها على عجل.. ثم رجع لضيافته ونقط الدم، والدهن
عالقة بلحيته، مستمتعاً بالشواء الذي نسى طعمه منذ زمن ضاع تاريخه.
وقد نسى آخر ما قاله الشيخ رضا عندما غادر الربعة. ولكنه على أية حال
كان يتحدث عن الجنة والنار وأنهار العسل والخور العين.

* * *

انتهى العذاب.. وأثمرت المتاعب راحة -لو وضعت همومي قبل اليوم
على ظهر بعير لقصمته. لكنني تحملتها بشجاعة. وساعدني الله على
اجتياز المحنة. ارأيتم -لابد أن اقولها- ارأيتم عاقبة الصبر يا أولادي؟ لقد
رست على شاطئ الامان. وقلت لكم ذات يوم ان جميع الاحزان تمحوها
ساعة فرح واحدة.. من حقي ان أخاطبهم مزهوا بحسن تدبيرى وشجاعتى
ولكن قبل هذا وبعده يتوجب علي شكر الله وحمده -لقد كنت في مركز
اهتمامه.. كم أنا محظوظ لبيذل البارى معى هذا الجهد. والان يجي دور
الوفاء بالندور وصدق الوعود.. اولها واكثرها أهمية تعلم فروض الصلاة.
أعترف للسيد الكربلائي ولصاحبه: بأنه وعد الله أكثر من مرة، ان يتعلم
الصلاة ثم أخلف وعده، لكثرة مشاغله.. وحين وجد نفسه بلا مشاغل عز
عليه من يعلمه الصلاة.. وها ان الله سبحانه يتساهل معه، مرة اخرى،
ويبعث اليه من يعلمه الصلاة في عقر داره.

أجابه السيد بلهجة تناسب وجلال الموقف: أمنت بالله يا صالح انه رؤوف رحيم.. لا تيأس ولا تحزن ولا تحمل هماً لتعلم الصلاة سوف اعلمك اياها.. ويقوم الشيخ الجليل (شيخ محمد رضا) بتلقيك ملحقاتها.. انه واجبنا يا (صالح).. من اجل هذا نتحمل متاعب السفر.. لقد نذرنا أنفسنا لخدمة الدين الحنيف..

تلكم (صالح) بخشوع: لقد استجاب الله لدعائي يوم احاط بي اليأس من كل جانب.. والا فكيف افسر مجيئكما الي في هذا المكان المنعزل؟ تحملان البشارة بالخلاص.. وتعلماني الصلاة.. لقد حق علي أن ادفع لكما فدية عن كل فرد من افراد عائلتي... سوف اجزل العطاء -فالرزق كثير- ان خيرى كثير والله الحمد..أنا متعطش للصلاة يا مولاي.. وقد عزمت ان لا ابرح دارى هذه الا بعد تعلم الصلاة.. فكم من الوقت يلزمني لتعلمها؟ وأريدها صلاة جيدة.. وليست من نوع صلاة "الغنامة".

أجابه الشيخ محمد رضا: نعلمك صلاة لا يعرفها فلاح ولا غنام.. نعلمك صلاة العلماء.. مثلما أصلي انا ويصلي السيد حسن -اعزه الله- اما مسألة الوقت فهي وقف على جهودنا.. ومدى استجابتك..

ضاق الشيخ محمد رضا بأسئلة مضيغه، فهمس لصاحبه:

-ستيجه نيدي- سل هيدي- سرط خيدي. سعست نيدي(١١).

ثم تمدد على فراشه، وأغمض عينيه، فاغتنمها (صالح) فرصة واطفاً الفانوس.

(١١)نتيجة هالخرط؟ نعست

وضع رأسه على الوسادة ليخطط مشاريع المستقبل السعيد بعد ان زالت الغمة. وكذلك فعل اهل بيته، كل على طريقته الخاصة.. وانها الليلة الاخيرة من ليالي العذاب وآخر العهد بالسجن الانفرادي الطويل.

نهق حمار، فحاكاه آخر، ثم ثالث ورابع.. حتى ضج المكان بنهيق الحمير. استيقظ اهل البيت.. واشتعلت النيران في الموقد والتنور والريفة.. صلى السيد وصاحبه. وقف صالح يمسح وجهه قبالة الشمس، ولما تشرق بعد، مرددا دعاءه الاثير، الذي لا يحسن سواه:

-اللهم صلي على محمد والي محمد -أصبحنا واصبح الملك لله.. اليوم

يومك يا علي..

ثم اضاف اليه فقرة مبتكرة:

-اشلون يوم رحماني؟ يا نعمتك يا ربي.. يا نعمتك يا ربي!

قال لولديه بعد الفطور:

- افرشوا للسيد والمومن بالمشاركة..

ولما خلت له الربعة، كشف التراب عن حفرة صغيرة، دفن فيها مائة دينار لا غير.. أخذ منها ثلاثين.. ثم اهل التراب على البقية: قد لايتصور السيد انني ادفع له مثل هذا المبلغ الضخم؟! كانت عادته السنوية ثلاثة دنانير.. الافضل ان يستقر المبلغ في جيبه ليزداد حماسة، ويبدل جهدا اكبر في تعليمي فروض الصلاة وملحقاتها..

لمح السيد الكربلائي وصاحبه اطراف الاوراق النقدية بين اصابع (ابو البينة) فتعلقت عيونهما بالمبلغ.. اعد كل منهما مجموعة ادعية.. وعبارات ثناء..

توجه (صالح) الى السيد الكربلائي وقال:

مولاي..

رد السيد على عجل، دونما انتظار لما يقوله (صالح):

-نعم ابو عبدالمهدي!!

-تگولون خر بر عجله.. مدري خير برا عجله..

-تقصد خير البر عاجله..

-أي نعم.. عاجلوه.. أنه هم رايح اسويها عاجلوه.. هاي ثلاثين دينار

اكراميتكم..

لهوج السيد وصاحبه، بالتتابع، يدعون بالخير لصالح أبو لبينة واهل

بيته:

- ثلاثين دينار؟ الله يوفقك..

- ثلاثين..؟ الله يزيد خيرك..

- ثلاثين؟ إلك كبالها ثلاثين الف يوم القيامة!

- الك كبالها ثلاثين مليون انشا الله..

- الله يحسن عاقبتك..

- الله يخلي ولدك..

- الله يستر عائلتك..

- الله...

- الله...!

تجمد الدعاء الاخير على طرف لسان السيد. وتجهّم وجه الشيخ رضا.

حين تحققا من ان الاوراق النقدية تحمل صورة الملك فيصل الثاني.

قال السيد بفتور:

- هاي شنو؟

أجاب (صالح) مزهواً بنفسه:

- مولاي.. هاي عطيتكم.. موش چثيرة عليكم.. تستاهلون ازود منها..

بالعافية عليكم..

فقال الشيخ محمد رضا:

- هاي من الفلوس العتيگه..!

ضحك صالح لهذه الدعابة، فطالما سمع الكثيرين يمزحون.. يقسم

احدهم للاخر "هذا الدينار ما يمشي" وانه كذلك. فليست له ارجل ولا

عجلات.

قال (صالح) ولماً تزل الابتسامة تزيّن وجهه:

- مولاي شنهو فرک الجديد عن العتيچ.. ما دام الكل يگضن شغل!

اجابه الشيخ رضا:

- هاي الفلوس سقطت.. صارت بمكانها فلوس جديدة.

تطلّع في وجه السيد، لايريد تصديق كلام الشيخ رضا.. فحرك السيد

الكربلاني رأسه موافقاً على كلام صاحبه وقال:

- صحيح -سقطت العملة اللي بيها صورة الملك- صارت بمكانها عملة

جديدة بها شعار الجمهورية..

- مولاي.. انت تتكشمر؟..

ويجب السيد:

ليس في الامر مزاح.. انه الواقع المر.. لقد سقطت نقودك هذه منذ زمن،

منحوا الناس فترة زمنية معينة لأستبدال نقودهم.. وقد إنتهت تلك الفترة، كما قلت لك، منذ عدة اشهر..

- مولاي كول غيرها..

ويرد السيد:

ان كنت في ريب مما اقول. ها انا اريك الدينار الجديد، اخرج السيد محفظة نقوده وبسط امام صالح ورقتين..

- مولاي.. هذني دانير.. وفلوسي أمهات الخمسة وأمّهات العشرة..

ضاق الشيخ محمد رضا، بهذا الحوار العقيم، فخلع عمامته. واستل من طياتها ثلاثة اوراق نقدية، رماها بعصبية بين يدي (صالح) وقال:

- هاك شوف.. هذا ابو العشرة.. وهذا ابو الخمسة. هذا وين وذاك وين؟ اصلا الدينار العتيك نسيناه.. ذاك اللي بيه صورة الملك!..

تفحص الاوراق التي بين يديه، ضيق عينيه لاقصى حد وهو يدقق النظر في الصورة التي تشبه الشمس -رفع رأسه وقال بذهول:
- مولاي.. القضية موش سهلة.

سأله السيد بأشفاق: هل ادخرت ثمن الغنم كله من هذه العملة - الساقطة؟ ام انك اودعت بعضه عند احد التجار في المدينة؟

رد (صالح) بصوت خافت- كأنه دخل في غيبوبة:

- كلها من هاي مولاي.. كلها من هاي مولاي..

قال الشيخ محمد رضا، امعانا في التعذيب:

- لو تنطى هاي الثلاثين دينار لصاحب دكان، ما ينطيك عوضها ججارة

امزبن.

حاول صالح ان يستعيد بعض رباطة جأشه.. بلل شفتيه.. ثم توجه الى السيد كالمستغيث:

- مولاي.. القضية موش هينه.. القضية جبيرة گولوا غيرها..
مط السيد شفته السفلى وقال:

- اشبيدي يا صالح؟ قابل أني عبدالكريم قاسم..مسؤول عن تبديل العملة!؟

- مولاي.. گول غيرها.. القضية كلش جبيرة.. الغنم كلها.. كل الغنم.
- قسمتک هاي..

- مولاي لا تكول هيچ.. حسبه جبيرة الف.. الوف.. الوف.. الوف..
اراد الشيخ محمد رضا ان يتأكد من افلاس ابو البينة فسأله:
- يعني ابد ما عندك من الفلوس الجديدة؟
- ابد! ولا فلس!!

التفت الشيخ رضا الى صاحبه وقال:

- (سمشي نيدي.. سار صيدي -سچيه حيدي. سرط خيدي..)(١٢)
عاد (صالح) يردد لفظ مولاي على غير هدى.. وكأنه يهذي فنصحه
السيد الكربلائي نصيحة لم تصادف أذنا صاغية: يا صالح ان فقدت
ثروتك فلا تفقد عقلك.. احتسبها عندالله واصبر. ثم نهض ليشد حزامه
وقال:

-عدنا شغل مهم- لازم نمشي.

(١٢)نمشي.. صار حجيه خرط..

رفع (صالح) يديه وقال بصوت متهدج:

- مولاي... ما دام ضيِّعت كلشي بدنياي.. ساعدوني بلكي احصل شيء من آخرتي.. اريدكم اتلعموني الصلاة..

قال الشيخ رضا لصاحبه:

(سله خيدي. سيولي ايدي)(١٣).

ويستغيث (صالح):

مولاي.. انا يانس، اقترفت من الآثام ما يتقل الظهر.. يتوجَّب عليّ ان أكفر عن ذنوبي.. ان انصرف الى ربي.. عساني أحضى بشيء من رضاه.. بعد ان خرجت من دنياي صفر اليدين.. أريد ان اتعلم الصلاة لأتشبث بها في لجة اليأس الخانق..

تمسك بأذيال السيد.. مردداً عبارات الاستغاثة والرجاء..

انتزع السيد جبته من يد (صالح) وانشأ يقول: ان مهمتنا الجهاد في سبيل الله، نحفظ الدين من عبث العابثين، وليس بوسعنا تبديد المزيد من الوقت هنا..

تساءل (صالح): الست القائل ان الصلاة عمود الدين ومفتاح الجنة..
وها انا استغيث بك لتضع يدي على الصلاة..

رد الشيخ محمد رضا نيابة عن السيد: نعم. الصلاة عمود الدين ومفتاح الجنة ولكن بوسعك ان تتعلمها على يد كائن من كان. أما مهمتنا فلن ينهض بها سوانا.. وفرق كبير بين أن تنقذ الدين كله..

(١٣) خله ايولي..

وبين تعليم مسلم واحد لفريضة من فرائض دينه.

- مولاي.. امشي عليك جدك.. لا تخليني وتمشي قبل ما تعلمني الصلاة..

رفع الشيخ رضا خرجه عن الارض، ووضعه على كتفه، ثم قال:

- انتة اييين جوعان حجي!

تشبثت (صالح) مرة اخرى، بجبة السيد حسن الكربلائي، وهو متكئ

على (الصيرة)، لا يستطيع النهوض.. وقال بصوت واهن:

- مولاي.. امشي عليك اهل البيت كلهم.. ساعدوني علموني الصلاة..

انه مسلم ومحتاركم..

سحب السيد جبته بعنف، وتبع صاحبه، الذي سبقه بضع خطوات،

فصرخ (صالح) بصوت متقطع:

- مولاي.. صدك -مثل ما قال احمدود بن اشنين الف رحمة على روح

اشنين..

توقف السيد -التفت الى (صالح) ليقول شيئاً، فسحبه الشيخ رضا من

ذراعه وقال:

- خله يولي گام يهذي.. هم مفلس وهم يلغي!

رفع صالح صوته اكثر من ذي قبل وخاطب السيد الكربلائي:

مولاي.. صدك انتة جذاب.. اكبر جذاب.. اثينكم جذاب.. هسه عرفت

حچيكم مثل دنانيري.. اويلاخ يا احميد يبويه.. هذا تالي فلوسك؟ وهذا

تالي الحجي السمعناه من الكربلائي! ثم سقط مغشياً عليه، فترأى لولديه

انه فارق الحياة. صاح (مهيدي) مستنجدا بأمه. تجمعوا حوله، لايدرون

ماذا يفعلون..

ركضت زوجته الى البيت وجاءت بمغزل عتيق كسرتة عند وجهه. ثم جاءت (هدية) بالمنخل وراحت تحركه فوق رأسه.. كما لو انها تنخل الدقيق مثلما فعلت امها، يوم اصيبت طفلة مهيدي بنوبة صرع. وقال (مهيدي) وهو يفرك كفاً بكف:

- يا ام حسين.. چنتي بواحد صرتي باثنين!

تعال يا من تطلع المطي من هالوحلة!!

الفصل السادس

فتح عينيه بعد غيبوبة طويلة، أعتبر خلالها في عداد الاموات. طالع وجه زوجته، مبتلا بالدموع. شمل الآخرين بنظرة، فرأى الكآبة تغشى الوجوه::
أهو حزن من اجلي.. ام لضياع ثروة كانت معقد الرجاء؟
قال بصوت ضعيف:

- شوية ماي..

ساعده زوجته على تقويم ظهره، واسندته حتى شرب الماء. ثم وضع رأسه على الوسادة ثانية، وراح يحرق في الوجوه بعينين خابيتين.
انشأت زوجته تقول كلمات لا تخفف مصابا ولا تعوض عن ثروة ضائعة:
- قسمه.. كلشي قسمه ونصيب.. احفظ عافيتك.. كلشي يهون دون العمر.. الحلال فدوه..

اغمض عينيه زاهدا في كلامها: اقوال تصلح لتسلية الاطفال.. وقد تخدع المغفلين الذين لا يعرفون قيمة المال.. أي معنى لعافيتي بعد ضياع ثروتي.. كد العمر كله.. أطبقت اسناني على الحلال والحرام.. ليتني ابقيت صفحتي بيضاء عند ربي.. ليتني لم أَدَسُّ ذمتي بالحرام.. ذهب الحلال والحرام.. وبين عشية وضحاها اجد نفسي معدما - كأنتي صحوت من حلم وكله يهون ازاء الشماتة. فتح عينيه وتأوه:

- أه يحميد ببويه راحن فلوسك!.. أه من الشماتة!..

قالت زوجته بلهجة مواساة: هل يشمت انسان بأخر اذا نزلت به نازلة من السماء؟ اطبق جفنيه وتململ في فراشه: تقول لا يشمت احد بأخر اذا حلت به مصيبة من السماء!.. فمن اين تأتي المصائب اذن؟ اذا لم تكن السماء طريقها!؟

فتح عينيه مرة اخرى وقال لزوجته:

- هاي سوائف عجائز.. ما تداوي جرح!

بادرت زوجته، تبلفه قرارا جماعيا، اتخذه اثناء غيبوبته:

-باچر نشيل للبترا.. حتى تحصلون وصلة گاع وتلحجون على الموسم

الشتوي.

نظر في وجهها مستغرباً.. ثم قال:

-انشيل؟! هذا ياهو الگال؟

واضاف جازما: لن ابرح مكاني هذا ابدا.. لن اسعى بقدمي للعذاب-

عذاب الشماتة والسخرية.. اغدو اضحوكة لكل سفيه وشبحاً لنظرات

التشفي.. وغمزات الشامتين! انا هنا حتى لو بقيت بمفردي.. لست بحاجة

لأحد منكم. ومثلما اسقط نقودي عبدالكريم قاسم تجيء حكومة اخرى

وتبعث فيها الحياة. ولم لا يكون هذا؟ ما دام اسقاط العملة بقرار فلا بد ان

احياءها بقرار.. انا اعرف ما الذي تقولونه.. وبماذا تفكرون.. اذا لم يكن

هذا محتمل الوقوع، جعلته لنفسي املاً، اعيش عليه.. سوف اختلق آمالا

لنفسي- تخفف عني قسوة الحياة.. انني افضل عيشة مثل عيشة الخنازير

و"الواوية" على مواجهة نظرات الشامتين.. وسماع ضحكات الهزء

والسخرية.. لو اقتضاني البقاء هنا -ألهم التراب لفعلت.. ولن أرحل.

اتفهمون؟ من فقد صبره فليرحل.. كلکم في حل من صحبتي..

ثم صرخ في وجوههم، بأعلى صوته:

-سمعتوا يولاء؟ لحد يعيد عليّ -سالفة الرحيل.. ترا أخط تفگتني

بحضني، وايدي على الزناد!

كفت زوجته عن محاورته، مخافة ان تعاوده نوبة الاغماء، مؤملة سنوح فرصة اخرى، يكون فيها احسن مزاجا- شبكت كفيها على ركبتيها وانصرفت مع نفسها، تفكر بما حدث.. ولحات من الماضي البعيد تتراقص أمامها:.. كان املي الوحيد لتكملة ثمن "الخزامة" في دجاجتي الوحيدة - عهد الصبا والعشق- وضعت تحتها عشرين بيضة حتى ضاق جناحاها عن احتضان البيض- قالت الله يرحمها "ثمن اجواز احسن" ورحت اعقد الخيط.. في كل يوم عقدة.. واعيد حساب العقد من حين لآخر.. وانقضت اربعة اسابيع.. وطالعتني الخيبة.. وظهر البيض فاسد كله.. اصيب الديك بعلة مفاجئة- فطنت له بعد فوات الاوان وعرفت انه عاجز عن التلقيح.. ولكن شتان بين البيض والدنانير.. هل كانت دنائره غير ملقحه؟! اسرار لا يعلمها الا العليم- لعله انتقم لعدالته المهانة.. لئن كان مطلعاً على الاسرار كلها.. فلا بد ان نفسه قد أشمأزت من عبث هذا الرجل وخيانتة للامانة.. كتمت معارضتي خوفاً من غضبه -مستهينة بغضب الله- ولكنه سبحانه يعلم ان لا حول ولا قوة لي.. ومع ذلك فلا يعفيني هذا من اقرار الخبيثة.. كان علي ان ابري ذمتي واقول كلمتي. كان ينبغي ان اقول "لا" لأنهم الشيوخ تبيح لنفسك سرقة غنمهم!؟

غرق البيت في صمت كئيب، بقية النهار وطوال الليل، واطل على العالم نهار جديد.. فسألت نفسها: ان كانت الخيبة قد جعلت مهيدي وزوجته يؤثران الانزواء في خيمتهما على تناول الفطور، فهذا مفهوم، الى حد ما، ولكن ما الذي حال بين الطفلة وبين المجيء.. عودتنا ان تستيقظ مبكرة.. ترفع الغطاء وتشد شعر رأسي، مطالبة بخبز الفطور.. ثم تملأ البيت تغريداً

وضحكاً.. فهل ادركتها خيبة الامل، هي الاخرى، وعرفت سقوط العملة
وضياع الثروة؟! لا اظن هذا ابداً... سأذهب الى خيمتهم..

صرخت الام عند باب خيمة ولدها:

- يبوه.. يبوه.. لا مهيدي ولا مرته.. ولا بته.. هرع (جنيدي) و(هديه)..
وتحامل الاب على نفسه.. مستعيناً بعصاه. سقط عند باب الربعة، فنادى
زوجته:

- ولج شنهى الطرکاعه؟! رحى اموت.. شنهى السالفة کلولى؟!

اجابته زوجته :

- مهيدي ومرته وبته ماكو...

اکمل (جنيدي) قولها موضحا:

- ماخذين غراضهم وماشين..

تاوه صالح وقال:

- معلوم يمشون.. معلوم!! بعد ما مش دبک رحل الذبان.. ما مش دبک

- ما مش ذبان!!

عض (جنيدي) شفته بقسوة، وحاور نفسه: سبقني الى الرحيل.. لقد
خمنت من قبل.. انه لا يعرف حياة الاستقلال.. وانه يبقى الى جانب ابيه
حتى يقنعه بالرحيل.. اما وقد سبقتني يا مهيدي فقد القيت على كاهلي
عبئاً ثقیلاً. ولا بد انها من تدبير الذئبة..

لو سبقتك لكانت صفة الذباب من نصيبي.. ولبئس الوصف والصورة!
وحالما تصل البترا تعلن النبأ فيبلغ مسامع (عبيد).. واللّه وحده يعلم ما
الذي سيقوله؟! وكيف يتصرف اذا عرف امر افلاسنا؟! اتراه يعرضها

للخاطبين.. ويبيعهها لأول ثري يطلب يدها!

أضحى مزاج ابو البينة في غاية السوء. فصار مثل شظية زجاج مدببة حادة، تتحاشاه زوجته ويبتعد عنه ولده.

اخذ الوقت يتمدد.. تتضاعف ساعات النهار.. اصببت الشمس بالخدر! تتباطأ في سيرها عامدة.. ويستيقظ كل منهم عشر مرات خلال الليل، ولا تلوح تباشير الفجر.

تسار جنيدي مع شقيقته.. استقرا عند رأي لم يكن جديدا.. فقد سبق لأمهما ان كلمت الاب بشأن الرحيل، فزجرها بعنف، ليس هذا وحسب، بل راح يتلفت يمنة ويسرة يبحث عن عصاة ليضربها.

وها هما مرة اخرى يلحان عليها لتجديد محاولة اقناعه.. فلم يعد بمقدورهما احتمال هذا السجن الرهيب.

اجهشت الام باكية، معلنة الضعف والقنوط:

- يمه، اكلكم الرجال امسودن! چاهيه شنهي مضمومة؟ امسودن

امسودن! شسوي له؟!!

نشب الصراع مرة اخرى في اعماق (جنيدي): هل من الحكمة ان استمر على رعي الحمير- وقد عرف كل فلاح قطعة ارضه في البترا؟ ولا اعرف شيئا عن مصير (نجمه)؟

"آخ".. لولا (هديه) لرحلت وارغمته على الرحيل.. مالذي يحول بين (عبيد) وبين تزويج (نجمه) لأول خاطب.. سيما وقد عرف اننا صرنا معدمين..؟!!

لا شيء يمنعه سوى وجودي هناك. لا بد من وجودي هناك- قرب

(نجمه) لا بد من مغادرة هذا المكان الملعون. يا الهي لا تحملني ما لا اطيق.. فليس كل انسان مؤهل لأجتياز الامتحان.. يا الهي لا تمتحن صبري فلست نبيا ولا وليا.. ما انا الا شاب عاثر الحظ.. غاية ما تمناه نيل حبيبته. انا اعرف يا الهي بأنك لا تعاقبني على ما اخذت من غنم الشيوخ.. وعلى مساعدتي لأبي.. فلقد بدأتها بنفسك وأنتقمت منهم بأنزاع الارض.. واذا كنت يا الهي مطلعاً على جميع افعالهم الشريرة- فلا بد ان وجهك يتهلل فرحاً وانت ترى عبداً من عبيدك يسرق اموال الشيوخ الطغاة الاشرار! انا على ثقة بأنك موافق تمام الثقة على ما فعلت ضد الشيوخ.. ولكن لا بد من سر وراء تعذبي لا يدركه سواك.. فأسألك بحق الانبياء والاولياء لا تدخلني في متهات اسرارك ولا تعرضني لتجربة لا قبل لي بها.. يا الهي انت تعرف (عبيد المنتاز) اكثر مني!! ومن الغباء ان اخادع نفسي واتطامن الى ضميره.. انه لا يتعفف عن عرضها للبيع.. ويعقد صفقة مع أي ثري يدفع له الثمن.. فأني شيء يبقى لي بعدئذ في هذه الدنيا؟

صرخ ابو البينه في وجه زوجته:

- امشوا عني.. ما محتاز احد منكم.. أنه موش دجاجة وياكلها الواوي.. انه زله وتفگتي بيدي..

ثم لطم رأسه ووجهه واضاف:

- احوه.. احوه.. اروح لأهل البترا واسمع ضحجهم علي..؟

يا احميد يا بويه.. "كلها اتهون إلا الشاوردي!" تحملت مصيبة افلوسك يا احميد ببويه.. مصيبة الالاف. "عشم وزرك". وتحملت خسارة الموامنه-

اللي بعد ما اصدك بحقيهم.. وتحملت نص من اعيال بيتي بالهور..
واتحمل اتعوفوني كلكم.. بس الشماته.. وضحجة الشامت ما اتحملها!

الفصل الرابع

انتهى الجزء الرابع من الرواية رواية جديدة

مسودات رواية جديدة تقدم الى رقيب المطبوعات في وزارة الاعلام، وحالما يضع "طمغة!" الموافقة عليها، تدفع الى المطبعة "فوراً!"

شيء عن الرواية

قدمت مسودات الرواية الى لجنة تعضيد النشر، بوزارة الاعلام على امل نشرها في سلسلة مطبوعات الوزارة، اوتعضيدها. وانتظرت حوالي خمسة شهور، بأيامها ولياليها، ولم تظهر النتيجة. وعندها نشرت في جريدة التاخي (العدد ١٠٩٧ - ٣٠ تموز ١٩٧٢) الكلمة التالية:

السؤال لك يا سيادة وزير الاعلام

منذ زمن ضاع تاريخه لم تبق منه إلا معالم جزئية، عالقة بالذاكرة، أمكنني الرجوع إليها، والاستفادة من معرفة الفصل. كان الصباح شتوياً، أتذكر ذلك جيداً، لارتباطه بحادث بهيج..! ارتدائي للبدلة -الكحلية- الأنيقة لأول مرة.. خطوط على مهل، مع شيء من الزهو! سعدت بالاسانسير. قرعت الباب. صبحت بالخير. قوبلت بترحاب منعش. ومع ذلك لم تشغلني بدلتي ولا الترحاب عما بين يدي. إنني احمل أصدقائي بين يدي. أصدقائي الذين عايشتهم، ليالي الشتاء الطويلة.. أحاورهم، أتخيلهم.. أبادل بعض ملامحهم.. أضيف عبارة.. او احذف لفظة.. وفي نهاية المسيرة مع -الدفترين- توطلدت صداقتي مع حسين، على نحو عجيب.. أناجيه وأناغيه.. أحياناً أصغي إلى أشعاره، وكأني اسمع صوته، برغم مسافة السنين.

اوضح لي السيد مسؤول لجنة تعضيد النشر: ان هذين الدفتين لابد
لهما من المرور بلجنة وخبير..ثم العودة من الخبير إلى اللجنة.. وقيل لي
فيما بعد، ان الخبير يحيي ويميت.. فأصبت بالوسواس، ورحت أسائل
الناس، من أن لأخر ألا تعرفون شيئاً عن الخبير؟ من هو الخبير فتلقيت
إجابات مختلفة مؤداها ان محاولة معرفة الخبير تورث الصداع في الأقل.
ويوما بعد يوم أصبت بعقدة الخبير.

مرة دعوت له بطول البقاء وموفور العافية –دون تعارف بيننا.. حتى دون
معرفة اسمه.. ومرة سألت نفسي ماذا لو مرض الخبير؟! فأجبت: سيطول
انتظاري لمعرفة النتيجة.

ويوم بدأت مفاوضات النفط.. تضاعفت وساوسي.. وهمست لنفسي:
ليتها تخرج من يد الخبير، فتنطلق أحلام –حسين-.. وتسمع الناس أهاته
الحزينة، التي طالما قطعت سكون الليل حزنا على ولده البكر الذي استشهد
في مذبحة كاورباغي:

-آخ! الانگریز.. آخ النفط!

وتمنى لو تمثلت شركة النفط بشخص.. لأنقض عليه كالصقر ونام،
بعدئذ في لحده قرير العين.

وصرت أتعجل رأي الخبير وأسائل كل صديق، صاعد او نازل في سلم
او اسانسر وزارة الاعلام.

وجاءت الضربة الحاسمة، في الأول من حزيران.. وفي لحظات الانفعال،
تذكرت حسين.. لقد تحققت أحلامه، وثار لولده من –الانگریز- ومن شركة
النفط..

لكن أحلام الرجل المكتوبة لما تزل حبيسة في أدرج مكتب الخبير. ثم استدراك له ضرورة: لم استهدف من كل هذا، ان الرواية صالحة للتعصيد او النشر. لكن المؤكد -جدا- والذي لا جدال فيه، ان أمنيات حسين، التي تحققت تصلح لان يراها الناس. وثمة حقيقة بالتواريخ، ان مسودات الرواية قدمت قبل مفاوضات النفط. التي مرت بألاف التعقيبات، وملايين المناورات من جانب الاحتكارات النفطية، ومع ذلك حسمت المعركة، وأممت عمليات شركة نفط العراق.. وتحققت أحلام حسين، وما تزال مسودات -الزناد- بين أوراق الخبير، او أية أوراق أخرى، المهم أنها حبيسة.. أليس من حقي ان أتجمل إطلاق سراحها؟

شمران الياسري

وبعد أسبوع نشرت مديرية الثقافة العامة بوزارة الاعلام (في جريدة التآخي) الإيضاح التالي:

إيضاح

نشرت جريدة -التآخي- في عددها الصادر يوم الأحد ٣٠ تموز ١٩٧٢ خاطرة صغيرة بقلم شمران الياسري موجهة إلى السيد وزير الاعلام تتضمن استفساراً حول -روايته- التي قدمها الى لجنة تعصيد النشر قبل اشهر بغية تعصيدا على غرار ما يجري لغيرها من المؤلفات وتنويراً للحقيقة نود ان نذكر الإيضاح التالي:

قدم السيد شمران الياسري مخطوطة -روايته- (الزناد) وتقع في جزئين الى لجنة تعصيد النشر. والعادة المتبعة في اللجنة ان تحال مسودة الكتاب

الى -خبير- يبدي ملاحظاته ويبين رأيه ان كان يرشحها للطبع او التعضيد.. وقد أحييت الرواية المذكورة وقدم تقرير بشأن صلاحيتها للنشر او عدمه.. ملخصه ان مستوى الرواية بشكل إجمالي لم يكن مما يرشحها للتعضيد بسبب من اعتمادها طريقة سردية بطيئة الحركة على نحو مضجر. ورغم التزامها قانون التسلسل الزمني فأنها تقفز فوق بعض الأحداث المهمة والأساسية قفزاً، هذا وقد فشلت الرواية في ان تربط ربطاً حيا النضال الطبقي في الريف العراقي بمجمل النضال الوطني اذ جعلت من الأحداث الوطنية التي وقعت في عموم القطر مجرد حوادث هامشية وخارجية وجردتها من أثارها العميقة في واقع المجتمع وعدا ما تقدم فإن المؤلف اعتمد -اللهجة- العامية في الحوار مما لا ينسجم مع خطة الوزارة التي تلتزم -الفصحى- في نشر الأعمال الأدبية وأما لغة الرواية بشكل عام فكانت اقرب الى اللغة الصحفية منها إلى اللغة الأدبية.. لذلك كان طبيعياً ان تعتذر اللجنة للسيد المؤلف عن تقديم المساعدة المالية لاسيما وان كتابه لم يحقق المستوى الفني واللغوي المطلوب. ولم يكن الوحيد الذي اعتذر له فقد بلغ عدد الكتب المعتذر عنها في المحضر السابق للجنة ٤٥ كتابا لمؤلفين عراقيين و٧ كتب لمؤلفين عرب وكان حرياً بالسيد المؤلف ان يتسلم مخطوطة كتابيه من اللجنة غب الاعتذار الا انه اثر ان يبيها لدى اللجنة معتقداً إنها ما تزال -حبيسة- للأسف الشديد.

مدير الثقافة العامة

فاغتنتها فرصة -ليس لتوضيح بعض الحقائق وحسب- بل من اجل
"الدعاية" لروايتي. فنشرت (في جريدة التأخي- ٢٢-٨-١٩٧٢) الرد
التالي:

شكرا لوزارة الإعلام على هذا التثمين الذي لا تستحقه الرواية!!
لابد لي ان اشكر لجنة تعضيد النشر، لإيضاح موقفها من رواية -
الزناد-. وقد تضمن إيضاحها ما سمي بملاحظات -الخبير- وتقييمه
السلبى لمستوى الرواية وما قيل عن -فشلها- في ان تربط ربطا حيا
النضال الطبقي في الريف بمجمل النضال الوطني واعتراض اللجنة على
استعمال اللهجة العامية في الحوار باعتباره لا ينسجم مع خطة الوزارة
التي تلتزم الفصحى في نشر الأعمال الأدبية.

كما تضمن الإيضاح واقعة، هي ان اللجنة اعتذرت للمؤلف عن تقديم
المساعدة المالية وعتب على المؤلف حيث كان حريا به ان يتسلم مخطوطة
كتابه -غب- الاعتذار.

فما الذي أريد قوله، بعد ان أخذت الرواية طريقها الى المطبعة، وستكون
بين ايدي القراء عما قريب حيث تولت طبعها مجلة -الثقافة الجديدة- كجزء
من سلسلة منشوراتها. داعية قراءها وأصدقاءها الى تعضيد نشر الرواية،
بشراء النسخ مقدما؟

١-ان إيداع الرواية إلى خبير -معين- لم يكن محض صدفة، بل كان
أمرا قصد منه الوصول إلى النتيجة -إياها-.

وكان بوسعي أن أثبت هنا تقييم خيرة النقاد، الذين قرأوا الرواية،
ولكنني تنبعت إلى ان هذا لا يغير من الموضوع بالنسبة للخبير، لان النقاد

أصدقائي، ولا بد ان يتخذ من هذه الصداقة سبباً للنيل من شأن أحكامهم.
أما -ضجر- الخبير من قراءتها، فتلك مسألة نسبية ولا يمكن اعتبارها
سبباً من أسباب الرفض.. وانه لأمر طبيعي ان يضجر -الخبير- من
قراءتها.. أما بالنسبة لعموم القراء، فبوسعي ان احكم سلفاً على مدى
استمتاعهم بقراءتها..

٢- ابلغني احد أعضاء لجنة تعضيد النشر قبل أيام من نشر كلمتي
الموجهة للسيد وزير الإعلام: ان النية متجهة داخل اللجنة الى تكليف خبير
آخر بقراءة الرواية.. وقد أورد ذلك جواباً على أسئلتى المتكررة عن
مصيرها.. ولم ابلغ أطلاقاً بقرار الرفض.. الا بعد نشر كلمتي بيومين.

٣- تتزاحم على الذاكرة أسماء كتب نشرتها وعضدتها الوزارة منها ما
-يربط ربطاً محكماً- بين النضال الوطني والنضال التحرري في العالم -
جدا- مثل كتاب العرب واليهود في التاريخ ومنها -ما نجح نجاحاً منقطع
النظير- في تحقيق المستوى الفني المطلوب.... وأسماء تلك الكتب معروفة
لن قرأوا منشورات الوزارة.

وعلى هذا الأساس رفضت لجنة تعضيد النشر ان تساعد على إخراج
روايتي ووضعها بين أيدي القراء، ولا يسعني إلا أن اشكر الوزارة على
هذا التتمين الذي لا تستحقه الرواية!

شمران الياسري

كلمة شكر للأصدقاء

كانت "الثقافة الجديدة" خلال فترة الإيضاحات، قد اتخذت قرارا بنشر الرواية. وطلبت من القراء تعضيدها. فتوافد الأصدقاء على إدارة المجلة، لشراء نسخ الرواية مقدما..

ولابد من الإشارة الى صديق، بعث ظرفاً مختوماً يحوي مائة دينار- مع كلمة اعتذار جاء فيها "هذا ما أستطيع المساهمة به لنشر الرواية..". ولم يكشف ذلك الصديق عن اسمه، ولم يدل على عنوانه.. فشكراً لكل الأصدقاء..

وعهدا على تنمية تلك الصداقة والحفاظ عليها.

ابو كاطع

رقم الإيداع في المكتبة الوطنية
بيغداد ٩٣٣ لسنة ١٩٧٢
رواية فلوس أحمد



أدباء - كتبوا عن المؤلف وعن الرواية

مقتطفات من مقالة كتبها الإديب (ياسين النصير) في ذكرى وفاة المؤلف بعنوان :

أدباء عراقيون (أبو كاطع : شمران الياسري)

لم تعد ذكرى شمران الياسري " أبو كاطع" مجرد ذكرى لأديب مات في الغربية، بعيدا عن أهله واصدقائه وأرضه، فالموت في الغربية هذه الأيام من أكثر الأمور عادية في حياة الأدباء والمثقفين العراقيين. فهو موت للجسد وموت للذاكرة أيضاً. كما هو موت لأدباء الداخل أيضاً، ذلك النمط الذي لم تشهد مثله بلدان العالم، هو أن يموت الأديب نتيجة نقص في الحرية والرأي والدواء.

وعندما يكون المثقف في مثل هذا الحال، يأتي الزمن على بقيته المتعبية فيصايرها القبر والكفن.

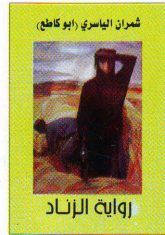
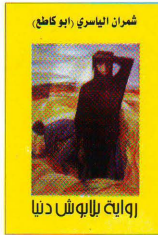
هي أذن محنة الثقافة التي أراد زبائنتها في العراق أن تتحول إلى ثروة مهملة ملغية ومتروكة على أرصفة الموانئ والطرقات.

ومما يزيد الوجع، أن المثقفين في الخارج بدأوا ينسون أمثال (أبو كاطع) الصوت الشعبي الممتلئ ثقافة بالحياة، الصوت النقي الذي امتلأ ب (لا) السياسية والثقافية، فيحول مفرداتها البسيطة إلى حكم وأمثال شعبية - سياسية، ذلك الصوت الذي كان يهدر من إذاعة بغداد ببرنامجه المعنون " أحجبتها بصراحة".

يكتب أبو كاطع احاديثه الإذاعية باللهجة الشعبية المفهومة من قبل كل العراقيين مستجلبا فيها حسجة الجنوب، وموال أواسط الفرات، وهوسات العشائر وغناء البادية، ومنابر الحسينيات، وثقافة الريف الحكائيّة.

من داخل هذا التركيب الثقافي العراقي الغائر في الشعبية، كتب أبو كاطع روايته المهمة "الرباعية" حيث جسد فيها تاريخ المجتمع العراقي من خلال مفردات الريف الاقتصادية والسياسية والفكرية بنماذج لا تنسى، وبشخصيات حية مكسوة بلحم العراق السياسي وبدمه الوطني وبتقافته الفطرية.

رباعية ابو كاطع



شركة دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع المحدودة

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ٨٢٤ بغداد لسنة ١٩٧٢ - الطبعة الثانية ٢٠٠٧